الأزهر عطية

# غرائب الأحوال

## في حياة الشيخة زهو البال

رواية



# غرائب الأحوال

## في حياة الشيخة زهو البال

الكاتب: الأزهر عطية
العنوان: غرائب الأحوال في حياة
الشيخة زهو البال / رواية
السنة: 2007
التصميم / الإخراج: Simple Production
الإيداع القانوني: 2820-2007
ردمك: 5-299-24-9947-978

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007

الأزهر عطية

# غـرائـب الأحــوال

## في حياة الشيخة زهو البال

روايـــة



-1-

إنها الجبال تتكاتف مستندة إلى بعضها، متخذة شكل حلقة من حلقات التجلي الصوفي، تكتسي لونها الأخضر، والسماء ترتمي وراءها متقببة، مضفية على الأفق لونا أغبش، يوحي بالحزن والانكسار. وقبل ذلك كله تمتد الأرض في انبساط متماوج، متغيرة الألوان، بدون انتظام، ولكن بشيء من التناسق والانسجام.

ومن هنا إلى هناك تستوقفك قطعان الماشية السارحة، أو أسراب الطيور العابرة، وتخطف أذنك بين حين وآخر، أصوات حيوانية، أو إنسانية، لا تستطيع أن تفصلها عن هذا الكم الهائل من عناصر الطبيعة التي تملك بصرك، وتشدك إليها بكل عنف، وتبعث فيك شيئا من التوحد والانصهار، وتثير فيك شيئا من الأحاسيس والمشاعر.

هكذا يبدو لك الكون هناك، صغيرا محدودا، ومحدودبا، ينتهي بانتهاء مد البصر. وبانطباق السماء على الأرض، خلف تلك الجبال المصطفة، التي تشكل حولك حدا لا يمكن تجاوزه، إلا بامتطاء أجنحة النفس التي لا تحدها الحدود، ولا توقفها الحواجز والسدود، حيثما كانت، وكيفما كانت.

في قلب هذه الدائرة، التي تبدو مغلقة بانسجامها وتناقضها، تثبت هناك تجمعات سكانية، يسميها الناس (دوار العرش). تتناثر منازلها الريفية البسيطة هنا وهناك، بغير انتظام، ولكن بانسجام مع نفسها، ومع ما حولها، وترتفع فيها، بين الحين والحين، أصوات أطفال، تتمرد على هدوء الطبيعة، ممتزجة بأصوات حيوانات تنبعث من قريب أو بعيد، وبأصوات لكائنات أخرى أيضا.

ومن الناحية الغربية تهب نسمات منعشة، تحرك أوراق الأشجار، وتداعب الوجود، باعثة في النفوس بعضا من الانشراح والبهجة، ورقة المشاعر والأحاسيس.

في هذا الكل المتكامل بصغره وكبره، وهدوئه وانسجامه، وما فيه من صفات أخرى. الكل يعرف الكل، صغارهم وكبارهم، نساؤهم ورجالهم. والطارئ لا يخفى أبدا، مهما كانت قيمته، خبرا كان، أو بشرا. يحصون بعضهم بالعائلات وبالأنفس في كل يوم. بل في كل لحظة. يعدون الأملاك، والأرزاق، والبهائم، والدجاج، وما لا يخطر على البال. من غاب، ومن عاد، ومن ولدت كلبته، ومن أكلت قطته أبناءها. من باضت دجاجته الحمراء، ومن ذبح ديكه الأسود. ومن احتضن زوجته قبل أن ينام، ومن أولاها ظهره لسبب من الأسباب.

إن القديم عندهم معدود ومفروض، والجديد مثير وملحوظ. وإنه لخبر يجب أن ينقل إلى الآخرين.

لقد حلت اليوم (زهو البال) ضيفة على ابنتها وزوج ابنتها.

* * *

كان المساء هادئا وجميلا، وكانت بعض القمم، هناك، مازالت تتمتع بآخر أشعة للشمس، التي راحت تهبط إلى مغيبها في ارتعاشة خفيفة، كأنها رقصة الانتشاء، أو رقصة الانتهاء. حينها، كانت زهو البال تجلس أمام مترل ابنتها، وقد أسندت ظهرها إلى الحائط، صامتة متأملة. وكان الناس إذا مروا أمامها، ينظرون إليها كعادتهم في تعاملهم مع كل طارئ وجديد. ولعل بعضهم يتساءل بينه وبين نفسه حول بعض القضايا التي لا معنى لها. ثم يتركونها هناك في مكانها، وفي جلستها المميزة.

إنها زهو البال، بنت المرحوم الشيخ الحافظ للأسرار، قد نزلت ضيفة على ابنتها، ما في ذلك شك.

لقد انتشر الخبر، رغم تفاهته، بسرعة، وعم كل المنازل بدون استثناء. فالجميع يعرف ذلك، ولكن الجميع يسأل نفسه عن ذلك ثم يجيب نفسه عن ذلك. إلا أن أحدا لم يكلمها بعد، ولم تكلم هي أحدا بعد.

كانوا ينظرون إليها ويمرون صامتين، فهي اليوم شيء طارئ عليهم جميعا. وكانت تنظر إليهم صامتة، في هدوء، كما كانت تنظر إلى باقي الأشياء الأخرى، وما أكثرها. إنها تحاول التفكير في شيء ما، أو قل التركيز على شيء ما. ولكنها لم تفلح، إذ كانت الصور تمر بذاكرتها مسرعة، الغائب منها والحاضر. القديم منها والحديث. أفكار مشوشة، وغير منتظمة، منها الواضح، ومنها المبهم. منها المتشابه، ومنها المختلف. إنها الذاكرة قد تعبت، وغدت غير قادرة على العمل كما ينبغي.

كل شيء يمر في تسارع وتزاحم، كمن يبحث لنفسه عن مكان، أو يبحث عن نفسه في مكان. الجبال، والغابات، والمنازل، والعباد. أبناؤها، زوجها، منزلها. النار، الماء، الليل، العسكر، الخوف. إنه الرعب ينتشر في كل مكان. ترتعش النفس، تهتز، ثم تجمد في مكان.

كل شيء كان مشوشا، وكان مقلقا، ولكنه كان لذيذا، رغم ما فيه من حزن وأسى، ورعب وبشاعة.

هل هو تعب الذاكرة؟ أم هو زخم الأحداث المتلاحقة، لكل هذه السنين الطويلة التي مرت، ولم تكن عادية أبدا؟ أم هما معا؟.

ما لهذه الصور الآن لا تتوقف، ولا تهدأ؟ ولماذا هي تلاحقني، كما يلاحقني قدري؟ أم هي قدري الذي لابد أن يلاحقني كلما حاولت الفرار منه، أو التخلص من وطأته التي مازالت تقسو علي وتشتد؟

تشعر بوخز في ظهرها. إنه ألم بسيط ولذيذ. كان ذلك من فعل نتوءات بعض حجارة الجدار الذي أسندت ظهرها إليه. ولكنها لا تتوقف، ولا تنقطع. إنها ترحل مع صورها المتلاحقة، منسجمة في رحلتها مع صراع الماضي والحاضر، اللذين يتسابقان أمامها، وإليها دون توقف، ودون انقطاع.

إنها تستمر، ولكنها تعمل جاهدة أيضا، لكي توقف تلك الصور، أو توقف بعضها على الأقل. إنها تريد أن تتأمل أشياءها، وتراجعها، وتراجع من خلالها بعض أجزاء حياتها، التي تعتقد أنه لا يوجد أجمل منها في هذه الحياة.

## -2-

إنها تعود الآن بذاكرتها إلى الماضي، وهناك من يعتبر العودة إلى الماضي هروبا من واقع صعب ومؤلم، وهناك من يعتبرها تسلية ومتعة. وهناك من يعتبرها تزودا بما يساعد على المقاومة، والسير إلى الأمام، أو بما يعطي القوة على الصبر والثبات، إلا أنه في كل الحالات، انتقال من حال إلى حال. حال يختلف عن كل حال، ويتميز عن كل الأحوال.

إنها إذا تنتقل من حال إلى حال، حاضرة وغائبة في كل حال، تمزج حاضرها بماضيها، وتحاول أن تشكل منهما عالما يختلف عن كل عالم، وحالا يختلف عن كل حال. وتكون هي فيهما العالم والمعلوم، والفاعل والمفعول. وتكون، في النهاية، هنا وهناك أو لا تكون هنا، ولا تكون هناك.

عينان تداعبان كل حاضر، وذاكرة تراجع كل ماض. وهي هنا، كما هي هناك. وجميل جدا أن يكون الإنسان هنا وهناك. إنها لعبة الرحيل التي أصبحت زهو البال تمارسها، وتمتع النفس بها، فتعيد لها بعض مباهجها، وبعض أشيائها التي افتقدتها رغم جمالها.

كان الفصل شتاء، والشتاء هناك صعب جدا، لأنه شتاء المناطق التي تنتقل من حال إلى حال، ولا تعرف المزج بين الأحوال مثلما لا تعرف الاعتدال.

وكانت الثلوج تغطي المنطقة بما فيها، وتحاصر كل من فيها. لقد استوت الأشياء، وغابت المميزات. ومكث الناس في ديارهم، منهم من يطلب دفء النار، ومنهم من يطلب دفء الأجساد. ولم يخرج إلا المغامرون، من الصيادين، وذوو التجربة في مثل هذه الحالات. فمنهم من عاد بأرنب سهل عليه اصطياده، ومنهم من اكتفى ببعض العصافير، ومنهم من عاد فارغ اليدين، ينفخ فيهما من حين لآخر، مخففا عنهما وعن نفسه آلام البرد القارس.

حينها، كانت زهو البال منقطعة، كغيرها، عن العالم في كوخها وقد افترشت وتدثرت بما يبعد عنها شدة البرد. متكئة إلى الجدار، متأملة ما حولها من محتويات كوخها. تحاول أن تشغل نفسها بأي شيء، حتى لا يستولي عليها القلق، تداعب فكرها الأشياء مثلما هي تفعل الآن.

إنها لا تريد أن تشعل نارا تتدفأ بها، لأن ذلك يزعجها كثيرا ويثير في نفسها الحزن، والذكريات المؤلمة.

إن لها مع النار تاريخا. ولذلك آلت على نفسها ألا تشعلها إلا للضرورات، وأن تتجنبها قدر المستطاع.

لقد جعلت النار للعذاب، في الدنيا، وفي الآخرة. وقد اكتوينا بها في دنيانا قبل آخرتنا. فهل ارتكبنا من الذنوب والمعاصي في حياتنا، ما يجعلنا نستحق مثل هذا العذاب، وهذا العقاب؟ أم أننا ندفع ثمن ذنوب غيرنا؟ أم هو اختبار لصبرنا وقوة إيماننا؟

تتحرك شفتاها. تقول شيئا. إنها تتلو شيئا من القرآن. يرتفع صوتها. تسمعه. تتلذذه، وتستمتع به. إنها تحب كثيرا سورة النساء، منذ أن كانت تجلس، وهي صغيرة، بالقرب من الكتاب، تسترق السمع، وتسترق الحفظ. ومنذ أن كانت تستمع إلى أبيها الحافظ للأسرار، وهو يرتل القرآن بصوته الجميل، والمتميز عن كل الأصوات.

يقولون دائما، إن صوت المرأة عورة، ومثل هذا الكلام لم يكن يقنعها أبدا، و لم تكن تستسيغه، ولن تستسيغه أبدا.

تستمر في الترتيل، وتستمر في التلذذ. وكذلك كانت تفعل منذ صغرها، كلما وجدت نفسها منفردة، وكلما شعرت بالوحدة.

كان لها صوت جميل ورخيم، وكان كل من يسمعها يعجب بها، ويستحوذ عليه صوتها. أما الآن، فإنها تعتقد أنها لم تعد كذلك. لقد تقدم بها السن، وذهب الزمان منها بما ذهب، وسلبها ما سلب، وترك لها ما ترك. ومع ذلك، فإنها ما تزال تحن إلى ذلك الماضي الجميل، وتحاول أن تعيشه كما كان، وكما تحبه أن يستمر ويكون.

أعتقد أنه لو كان بإمكان الإنسان أن يعود إلى طفولته، في مرحلة من مراحل هذه الحياة، لفضل كل الناس أن يستعيدوا طفولتهم لأنها أجمل شيء في هذه الحياة. إلا أن المؤسف في ذلك، أنها لا تستعاد ولا تسترد إلا في أحلامنا، وفي لحظات تمر بنا مسرعة، فتزيد من شوقنا إلى ذلك الجميل، وتبعث فينا ما يعذبنا، ويقهرنا، ويثير آلامنا وأحزاننا.

في طفولتها استطاعت أن تحفظ القرآن كـــاملا، وكذا متن ابن عاشر. وذلك عن طريق الاستماع إلى معلم الكتاب الذي كان قريبا من مترلهم، وعن أبيها المرحوم، العالم بالأخبار، والحافظ للأسرار، شيخ الدار والدوار. كما تعلمت عنه أيضا، القراءة والكتابة بخط مغربي جميل.

كانت تكتب في كل مكان، وتتلصص بين حين وحين على كتابات الأطفال، الذين يتعلمون في الكتاب، ثم تقارن خطها بخطوطهم. وكثيرا ما كانت تأخذها النشوة، عندما تجد أن خطها أجمل من خطوطهم، وكتاباها أفضل من كتاباهم، وأوضح منها بكثير أيضا.

وبعد حفظها للقرآن، ومتن ابن عاشر، راحت تقرأ بعضا من الكتب التي كانت تجدها في صندوق خاص لأبيها العالم بالأخبار، والحافظ للأسرار، الذي كان يشجعها على ذلك، ويساعدها على شرح بعض ما يستعصي عليها فهمه. فذلك أصبح يخفف عنه ما كان يحز في نفسه، ويقلقه، عندما يتذكر انه لم يسمح لابنته بالتعلم في الكتاب، عندما كانت صغيرة، امتثالا منه للأعراف والتقاليد، التي تحاصر الأنثى، وتمنعها من التعلم في الكتاتيب، والمدارس.

وعندما كانت تساعد أمها في صنع مستلزمات البيت من الأواني الفخارية، كانت تتفنن في تشكيلها، وتجميلها، وذلك بأن تنقش أو ترسم عليها حروفا، أو كلمات، أو حتى عبارات كاملة، قد تنشئها هي، أو تنقلها عن بعض الكتب التي كانت تقرأها.

وإذا كانت أمها لا تحبذ منها ذلك، لأنها لا تفهمه، فإن أباها كان يعجب به، ويشجعها عليه. بل ويتباهى به أمام الضيوف والزوار.

لقد كان أبوها العالم بالأخبار، يحبها كثيرا. فهي الابنة الوحيدة التي رزق، والأثر الوحيد والفريد الذي سيتركه في الناس بعد وفاته. إنها بهجته، ومسرته في دنياه، منذ ولدت إلى أن توفي، رحمه الله. حتى أنه أسماها (زهو البال)، لما كانت تدخل على حياته وفي نفسه من سرور، وفرح، واعتزاز. ثم اشتهرت بذلك الاسم، ونسي أهلها وأقرباؤها اسمها الأصلي، ونسيته هي أيضا. وهي تعتقد أنها كانت تسمى في بداية الأمر، سعدية، أو سعادا، أو مسعودة، أو شيئا من هذا القبيل. إلا أن ذلك لم يعد له أثر الآن في ذاكرتها، ولا في ذاكرة غيرها من الأهل والأقارب. ولعل الأوراق الرسمية للحالة المدنية، والتي لم تهتم بها في حياتها أبدا، هي وحدها التي مازالت تحتفظ بذلك الاسم، الذي ذهب بذهاب الكبار من أفراد العائلة، الذين يستطيعون أن يذكروا ذلك، أو يتذكروه. وعلى رأسهم أبوها وأمها. فكل الناس ينادونها زهو البال، لأنهم عرفوها منذ صغرها، بهذا الاسم، ولم يعرفوها باسم آخر غيره.

## -3-

كان قديسا، بل قل كان ملاكا. ومع ذلك لم تكن عليه بردا وسلاما. فلم ينج منها، و لم أستطع إنقاذه منها، ومن لهيبها الذي كان يشتد ويرتفع، إلى أن أتى على كل شيء في لحظات قليلة، لم أعرف أبشع منها في حياتي، ولا أعتقد أنني سأعرفه أبدا.

كان الليل وكان الشتاء. وليالي الشتاء طويلة، ومظلمة وباردة أيضا، وملهمة للأفكار، والأحزان، والأحلام المختلفة المزعج منها، واللذيذ. المفرح منها، والمرير.

وعندما يشتد البرد، وتتخشب بعض أجزائنا ونشعر بالألم يحاصرنا، تقترب أجسادنا من بعضها، بحثا عن الدفء، وعن أشياء أخرى، نشعر بلذتها عندما تلتصق الأجساد ببعضها، وتختلط الأنفاس ويرحل كل واحد إلى عالمه الذي يحلم به، أويبتغيه.

مرت أمامها قطة صغيرة بلون رمادي. توقفت. ثم راحت تحرك ذيلها حركات ثعبانية. وفجأة، اقتربت منها، وراحت تتمسح بها، وهي تموء. نظرت إليها بمرارة، وقد اقشعر بدنها، وأحست ببرودة تسري في كامل جسدها. إنها لا تحب اللون الرمادي، ولا تحب القطط أيضا. ثم رفعت رأسها إلى السماء، فإذ هناك سحابة رمادية اللون تكدر صفو تلك الزرقة الجميلة، وتزرع فيها شيئا من الحزن والأسى، وشيئا من التوحش، والضياع.

إن النار لا تترك بعدها إلا الرماد، وإن الرماد لا يأتي إلا من الحرائق.

آه، ما أبشع الحرائق. وما أبشع هذا اللون، وما أفضع ما يوحي به من أحاسيس، ومشاعر تهد الكيان، وتزرع فيه بذور الغربة والآلام.

هي القطط إذا، وهي ألوانها الرمادية المرعبة. تتمسح بنا وتتحبب إلينا، وتسمعنا مواءها، فنداعبها، ونطعمها. وفي الليل تتدفأ من دفئنا، وترينا بريق عيونها الفسفوري، في الظلام الدامس.

هي القطط إذا، جميلة، ولكنها مخيفة، بل مرعبة. تخبئ لنا في عيـــونها من الأسرار والأخـــبار ما يوجعنا، ومن الذكـــريات والآثار ما يروعـــنا.

* * *

كان الليل، وكان الشتاء، وكان البرد قارسا، وداعيا للبحث عن الدفء. ولكنها لم تشعل نارا لتتدفأ هي وأطفالها. إنها لا تحب النار ولا تستعملها إلا للضرورات القصوى، حيث لا يمكن الاستغناء عنها، وحيث لا يمكن تعويضها بشيء آخر.

كان زوجها غائبا. لقد سافر منذ أيام إلى مسقط رأسه، وبلاد أبيه وجده، لتسوية قضية إرث هناك، كان هو أحد أطرافها الأساسيين. فقد نشب هناك خلاف حول استغلال الورثة للأرض، ولما بلغه الخبر، أسرع إلى المدينة ليستقل الحافلة من هناك، إلى مسقط رأسه. وقد قرر، في هذه المرة، أن يبيع نصيبه إلى أحد أقربائه، الذي كان قد عرض عليه، قبل ذلك، مبلغا محترما، ولكنه لم يغره. لقد قرر في هذه المرة، أن يصفي حسابه هناك، كيفما كان الأمر،

وبأي ثمن كان. لقد صار يقلقه اختلاف هؤلاء الورثة، الذين لا ينال منهم في نهاية الأمر، إلا إزعاجهم له، واستنجادهم به كلما نشب بينهم خلاف. ولذلك رتب أموره المترلية قبل السفر، وحمل معه الوثائق اللازمة لفض التراع نهائيا، أو ما يخصه هو على الأقل كطرف أساسي في ذلك.

نظر إلى زوجته نظرة حادة، كنظرة القط في ظلام الليل الحالك، ثم امتدت يده لتربت على كتفي ابنه البكر، وهو يوصيه بما يجب القيام به أثناء غيابه. ثم دار حول المترل سبع مرات كاملة، قرأ فيها سورة الفلق، سبع مرات أيضا. وأردفها بشيء من الدعاء. ثم مد خطواته الأولى نحو الغرب، دون أن يلتفت وراءه. بينما بقيت زوجنه وأبناؤه واقفين مشيعين، إلى أن غاب، عن أعينهم، وراء الهضبات المترامية هناك بدون انتظام.

وفي الليل أطفأت مصباح النور، بعد أن اندست هي وأبناؤها في فراشهم الجماعي. ثم راحت أجسادهم تقترب من بعضها وامتدت يداها لتسوي الغطاء، ثم لتضم إليها أجساد أطفالها الطرية، تعطيهم دفئا، ويعطونها دفئا. وتسمعهم من قصصها الجميلة والطريفة، ما يلذ ويشوق، إلى أن يأخذهم النوم جميعا، ويرحلون من خلاله، إلى عوالم أخرى.

ما أجملها أيام. وما ألذها حياة، رغم بساطتها، ورغم محنها الكثيرة.

تجاوز الليل نصفه، أو ما يزيد، ومن الناس من نام وتلذذ بأحلامه، أو انزعج منها. ومنهم من بنى وعلى، ثم هدم ما شاد، وعاود الكرة عدة مرات. ومنهم من مارس طقوسه الليلية، التي لا يمارسها سواه، لأنها سر من أسراره التي ابتدعها ومارسها، وسيبقى يمارسها، إلى أن يرحل وترحل معه.

تجاوز الليل نصفه، أو ما يزيد. وحدث فيه ما يمكن أن نتوقعه، وما لا يمكن التفكير فيه أبدا.

كان الظلام حالكا، والصمت سائدا، عندما انقطع عنها حلمها الذي لم تعد تتذكره بعد ذلك. أو لعلها تتذكره، ولا تريد البوح به، لسبب لا تعرفه إلا هي. حينها، أرادت أن تشعل المصباح، ولا أحد أيضا، يعرف لماذا. حتى هي الآن لم تعد تعرف ذلك، ولا تستطيع أن تتذكر ذلك. لقد غابت عنها التفاصيل واندثرت، ولم يبق في الذاكرة إلا استفهام بحجم الكارثة، وبعض الألوان المتداخلة، التي شربت بعضها، أو اغتصبتها الفجيعة.

امتدت يدها في الظلام تبحث عن القنديل الزيتي، الذي أطفأته، ووضعته عند رأسها قبل أن تنام. ولكنها لم تجده في مكانه.

لمست أصابعها الأرض، فأحست بشيء من البلل. لقد تغير المصباح من مكانه إذا.

ثم سحبت يدها، ودستها تحت وسادتها تبحث عن علبة الثقاب، التي تعودت أن تضعها هناك كل ليلة. وبسرعة راحت تقدح العـــود الأول. وبسرعة، أيضا، وقع ما لم تكن تفكر فيه أبدا، وما لم تكن تتوقعه. كومة من اللهب عند رؤوسهم، راحت تمتد بسرعة إلى الفراش والأغطية، وشعلة أخرى صغيرة يحملها القط في جسده، وينط بها من مكان إلى آخر، داخل المترل، يزرع النار، ويزرع الرعب في كل مكان، وهو يرمي بنفسه في كل ركن من أركان المترل. وبقوة لم تعهدها حتى هي في نفسها، ارتفع صراخها يمزق الصمت المطبق. واندفعت بعنف لاإرادي، تكافح النار، وتحاول إنقاذ أطفالها، وإخراجهم من وسط الحلقة الجهنمية، التي راحت تحاصرهم من كل الجهات.

إنها الآن، لا تذكر، من كل ذلك، إلا ما هو مرعب. صرختها المدوية في ظلام الليل، وكتلة اللهب التي فاجأتها، ثم راحت تنتشر لتملأ المترل كله، وكفاحها المستميت، لإطفاء النار، وإنقاذ أبنائها، الذين كانت النار تحاصرهم من كل ناحية، فراحوا يفرون منها وإليها، وقد سيطر عليهم الرعب والهلع، فأصبحوا لا يفرقون بين النجاة والموت، ولا يعرفون إلا الصراخ بأعلى أصواتهم والجري في أي اتجاه كان. ثم صورة القط الملتهب، الذي كان يجري في كل الاتجاهات، ويزرع النار والرعب في أرجاء المترل كله.

وفي النهاية، كان الموت حاضرا، وكانت النجاة حاضرة أيضا. لقد كانا معا.

لقد أسرع الناس للنجدة، ومنهم من كان في ثياب نومه. وتجرأ بعضهم على المقاومة، وعلى التحدي. ولكن الأمر كان قد قضي. فقد شاء الموت أن يحضر في تلك الليلة المرعبة، وأن يأخذ ما أراد أن يأخذه، ويترك ما أراد أن يترك. فقد نجت الطفلة، ونجا الطفل البكر أيضا، بعد فزع وهلع. ونجت الأم بحروق في يديها، وشعرها، وبعض ملابسها. أما الرضيع، فإنها لا تتذكر منه الآن، إلا صورته المشوهة، التي مازالت تلاحقها، وتزورها بين حين وآخر في بعض أحلامها، وحتى في يقظتها.

لقد تحولت جثته، وصورته، إلى شيء يثير الرعب في النفوس. ومع ذلك، فكم كانت شجاعة هذه المرأة. وكم كانت قوية، وكم كانت رائعة في كفاحها وصراعها مع النار، وفي إنقاذ أبنائها، وإنقاذ نفسها. وكم كانت رائعة حتى في بكائها، وفي حزنها.

-4-

أمام منزلها الصغير، الذي هو عبارة عن كوخ، مجاور لمنزل ابنتها أم السعد، تجلس بجانب الباب، وقد أسندت ظهرها إلى الجدار، وسرحت بفكرها بعيدا.

عندما استقرت عند ابنتها أم السعد، فضلت أن يكون لها منزلها الخاص. وقد لبى زوج ابنتها رغبتها تلك، فبنى لها كوخا صغيرا، ولكنه جميل ولطيف. ينفتح بابه كل صباح، ليستقبل الشمس مثلما هو الآن. وتجلس هي بجانب الباب لتتدفأ بأشعة الشمس الدافئة، حين لا تبخل بأشعتها على تلك المنطقة.

إنها تحاول تسلية النفس، فتنتقل بها عبر الأزمنة، وبدون انتظام، بين ماض، وحاضر، ومستقبل. تتصفح الحاضر من خلال ما ترى، راجعة بين حين وآخر إلى الماضي. وقد تدفع بنفسها إلى مستقبل هي لا تعرفه، ولكنها تتخيله، أو تحلم به، وتتمناه. أو هي تهرب إليه من ثقل الماضي العنيد، وذكرياته المؤلمة، التي مازالت تطاردها إلى الآن. وكم حاولت أن توصد أبواب نفسها على ماضيها، لكي تتخلص منه. فهي لا تريده، ولا تريد الرجوع إليه. ولكنه كان يريدها، ويلاحقها باستمرار، كاشفا عن نفسه بنفسه. يتحداها، ويرهقها بما يحمله إليها، وما يثيره في نفسها من كوامن، أغلبها مؤلم وحزين.

سنوات عديدة كانت قد مرت، ومرت معها أشياء كثيرة، منها ما كان يفرح، ومنها ما كان يحزن. منها ما يستحق الآن أن نتذكره ونستوعبه. ومنها ما لا يستحق ذلك، ولا يستحق حتى أن نفكر فيه.

كبر الأبناء بعد صغر، وتفرقوا بعد اجتماع. أخذ الموت أحدهم ذات ليلة، بطريقة مرعبة، ومروعة. وذهبت البنت إلى بيت الزوجية. أما الثالث، فقد اختار طريقا أصعب. رحل إلى المدينة للدراسة، وقضى بها سنوات قليلة. كان لا يأتينا فيها إلا أثناء العطل. وكنا ننتظره، وننظر إليه ونحلم باستمرار. وكان ينظر إلينا، ولعله كان يحلم أيضا. ثم فضل أن يذهب من هناك. لقد قرر و لم يقل. وذهب و لم يعد. ثم جاء دور الأب، فرحل هو أيضا. اختطفه الموت ذات يوم من أيام الصيف الحارة.

ذهب الجميع، و لم يبق سواها في ذلك المترل، الذي سيطرت عليه، بعد كل ذلك، الوحدة والوحشة، وخيم عليه الفراغ القاتل، والسكون الممل، والذكريات الحزينة. و لم يبق لها إلا كلب وفي، يتبعها حيث مشت، ويقبع بالقرب منها حيث جلست، وينبح لكل قادم غريب، في الليل، وفي النهار.

كانت نائمة نوما هادئا، كنوم الأطفال. لم تحلم بشيء بعد. لقد مضى ثلث الليل، وبدأت لسعات برده تتسلل إلى جسدها المتعب، و لم تجد من الأجساد ما يدفئها، مثلما تعودت، من أجساد أبنائها، الذين كانت تضمهم إليها في مثل هذه الليلة، إلا جسد زوجها النحيف المتعب، الذي أنهكته السنون، وفعلت فيه فعلها،

فأخذت منه الكثير مما كان يتميز به من دفء، ولذة، وقوة. فراحت تلتصق به أكثر، بحثا عن دفء الشيخوخة، الذي أصبح يتحكم، ويفرض منطقه رغم فتوره. وتشد الغطاء إلى جسدها، وتتقلب ذات اليمين، وذات الشمال إلى أن أخذها النوم. و لم تستفق إلا على ضجيج، وأصوات غريبة، وضربات حادة وعنيفة، خلعت الباب. ثم امتلأ المترل عليهما بعساكر ذوي وجوه مرعبة، بأصواتهم الحادة، وحركات دخولهم وخروجهم غير المنتظمة، وانتشارهم الفوضوي في كل أرجاء المترل وكأنهم يبحثون عن شيء خطير، أضاعوه هناك، أو أخفي عنهم.

أنهضوا الزوج المتعب بشيخوخته، وبنومه، واقتادوه خارج المترل. وعندما كانوا يملأون باب المترل، وهم ينسحبون، لحقت بهم، وهي تحمل بعض ملابس زوجها، فاختطفها منها أحدهم ثم دفعها من صدرها، يعيدها إلى الداخل.

لقد ذهبوا به و لم يكلموها، و لم يقولوا لها شيئا. كانوا يتكلمون فيما بينهم، ويرطنون بما لا تفهمه، وينظرون إلى المترل بأركانه، وجدرانه، وسقفه، وإلى كل ما فيه. فتشوا كل شيء كما يجب، ثم انسحبوا، و لم يقولوا شيئا.

وفي الليلة التالية عادوا. و لم يخلعوا الباب هذه المرة، لأنه كان مخلوعا منذ ليلته السابقة، فما أن لمسه أحدهم بمؤخرة بندقيته حتى تهاوى أمامهم. ثم مروا عليه بأقدامهم الخشنة كسنابك الخيل. كما أنهم لم يفاجئوها، لأنها لم تكن قد نامت بعد، و لم تكن تحاول ذلك لقد كانت في صراع كبير، تحاول إبعاد كثير من

الأفكار التي تزعجها أفكار عن زوجها، وأخرى عن ابنها. لقد فكرت فيهما كثيرا، ورحلت معهما إلى عوالم غريبة، ولم تفكر في نفسها أبدا.

انتشروا في المترل مرة أخرى، وتفقدوا كل شيء فيه؛ سقفه، وجدرانه، وأرضه، وأركانه، وكل ما فيه. ثم سألوها بعض الأسئلة عن زوجها، وعن علاقته ببعض الأسماء التي تعرفها، والتي لا تعرفها. ثم عن ابنها الغائب. فكانت تجيبهم عن كل أسئلتهم بالنفي لقد طبقت الحكمة الشعبية التي تنصح بذلك، وبخاصة منها تلك التي تقول (احفظ الميم تحفظك).

وأخيرا، أخرجوها، ثم أضرموا النار في المترل من كل جوانبه، وانسحبوا وتركوها هناك، لا تدري ما تفعله وسط ذلك الظلام، الذي راح يتبدد شيئا فشيئا ويتراجع أمام ألسنة اللهب، التي كانت تعلو وترتفع، وكأنها وحش خيالي هائج، يبحث عن فرائس أخرى يلتهمها.

لم تصرخ، ولم تبك، ولم تحرك ساكنا. تراجعت قليلا، ثم جلست وأسندت ظهرها إلى جدار هناك، وراحت تتأمل الحريق، وتحترق صامتة، هادئة، وقد سكنها الرعب، وتخشب فيها كل شيء وذهبت عنها الأفكار، واستولى عليها شيء من التبلد. لقد فقدت كل شيء، وحاصرتها كل الأشياء.

وفي الصباح الباكر رحلت. ولم تحمل معها شيئا، إذ لم يبق لها شيء تحمله.

ألقت نظرة حزينة على ركام الرماد، الذي كان منزلا لها، ثم رحلت. كانت تحرك خطواتها الثقيلة، وتدفع نفسها دفعا، في اتجاه ما، حافية القدمين، حاسرة الرأس، لم يكلمها أحد، و لم تكلم أحدا. كانت أعماقها هي التي تتكلم، وهي التي تسمع، وهي التي تتألم، وتحترق.

لقد حدث هذا مرتين حتى الآن. كانت الأولى منذ سنوات.

تذكرت الآن ذلك، وتذكرت ملاكها، وفلذة كبدها، الذي شوهه الحريق آنذاك. إنها سنوات العمر تأبى أن تمر إلا على المحن، وعبر الآلام.

تذكرت ذلك، وقطرات الندى النائم على أوراق العشب تبلل قدميها الحافيتين. وأشعة الشمس الراقصة تخترق الأفق، وتداعب وجهها أتعبته السنون، وأثقلته الهموم، ولكنه مازال صامدا، كوجوه المكافحين الأشداء.

كانت تلك محطة أخرى من محطات العمر القاسية. وستبدأ المسيرة من جديد، نحو المجهول، وما يخبئه لها.

وأخيرا، اختارت أن تحط رحالها عند ابنتها أم السعد، لتبدأ من هناك رحلتها الأخرى، وتنتظر عودة زوجها، وتلتقط أخبار ابنها في رحلته الصعبة.

## -5-

الموت راحة لمن لم يجد راحة في دنياه. ولكنه ألم أيضا. ومـــن الناس من يتمنى الموت فلا يأتيه. ومنهم من يأتيه وهو لا يبتغيـــه. تلك هي تناقضات هذه الحيـــاة، الـــتي لا يمكـــن للإنســـان أن يستوعبها، ويطمئن إليها. أو يدعي ذلك، لأنها شيء لا يبتـــدئ ولا ينتهي، ولا يستقر على حال. هكذا يقال لنا منذ البداية. وهكذا يصبح اعتقادنا. وهكذا نقول نحن لمن يأتي بعدنا ويستخلف فيها، ويعيش متناقضاتها.

* * *

كان أبيض الوجه، أسود الشعر والعينين، حـــاد النظـــرات، قوي البنية، كآلهة الرومان. طويل القامة، كأشجار الصفصاف العاتية. هادئ الطبع، ثابت الرأي، قوي العزيمة.

أراه الآن يمتطي صهوات الجبال والمرتفعات، كفارس الأحلام الذي لا يقهر أبدا، ولا يستكين.

هكذا أراه الآن، بعد أن رحل. وهكذا كنـــت أراه أيضـــا، قبل أن يرحل. إنه الثابت الذي لن يتحول في حياتي أبدا.

لم يعرف مرضا ألزمه الفراش، منذ عرفته. ولم يزر طبيبا ولم يعلق تميمة في حياته، مثلما يفعل أغلب الناس. كان يقهر المرض بالحركة والنشاط. ولم يكن يستسلم للراحة إلا بعد التعب، ولا للنوم إلا في أوقاته. ولا يشتكي، ولا يظهر ألما، إلا تعاطفا مع الآخرين.

أما في ذلك اليوم الصيفي الحار، والذي لا يشبه هذا اليوم، إلا في هذه الكآبة التي تلفه. فقد عاد من العمل متعبا جدا. صحيح أنه لم يصرح بتعبه ذلك، وتلك عادته دائما، ولكن ذلك كان باديا عليه. بحيث لم يستطع قهره، ولا حتى إخفاءه.

إنها المرة الأولى التي أراه فيها على تلك الحال، فأشعر بالخوف، وأتماسك حتى لا أعلن انهياري أمام شيء أجهله. فكنت أحاول أن أجعل نفسي في صورتها العادية.

رمى بأشيائه جانبا، ثم اغتسل بهدوء تام، واستلقى على ظهره في ظل شجرة الدردار، التي تغطي جزءا من ساحة المترل. شجرة كان قد زرعها ذات يوم من أيام السنوات الخوالي. ثم راح يعتني بها ويسقيها، ويشذب فروعها وأغصانها، حتى استقامت، وارتفعت، كارتفاع قـــامته واستقامتها المتميزتين. وقد كتب لها أن تنجـــو من الحـــرائق، لكي تبقى شاهدة على صاحبها، وشاهدة على أيـــامه الجميلة.

كانت عيناه تداعبان أوراق الشجرة المتماوجة مع النسمات، التي كانت تداعبها وقد تخترقها إلى زرقة السماء. وكانت أذناه تلتقطان أصوات العصافير المزقزقة الآتية من كل الجهات. ولكنه كان يشعر بشيء من القلق، وبشيء من الحرارة يسري في جسده، ويرتفع شيئا فشيئا.

لم يطلب أكلا، ولكنه كان يشرب كثيرا. كان يريد أن يطفئ ما يلتهب فيه، ويغفو قليلا، ولكنه لم يستطع ذلك.

وفي الليل صار يشعر بألم حاد في يده اليسرى، راح يشتد ويسري في كامل جسده. و لم أستطع أن أفعل له شيئا. و لم يستطع هو أن يقاوم كعادته. فاستسلم للحمى والهذيان. وطوال الليل كنت أسمعه يقول أشياء أفهمها، وأخرى لا أفهمها، إلى أن استسلم في آخر الليل لنوم هادئ كنوم الأطفال، لم يستيقظ منه إلا بعد أن صارت الشمس في كبد السماء.

إنها المرة الأولى التي أراه ينام فيها إلى وقت متأخر من النـــهار، ويعجز فيها عن الذهاب إلى العمل. لقد كان يوما ليس كغـــيره من الأيام. أتذكره الآن بعد كل هذه السنوات الثقيلة، وكأنـــه الأمس القريب. بل كأنه الآن.

زاره الأصدقاء والأقرباء والمعالجون، وأهل الخبرة بالأمراض، والأدوية الشعبية. وقد تداولوا الحديث في مرضه، حسب تجاربهم التي أفادت، والتي لم تفد. ولكنهم لم يستطيعوا أن يقرروا شيئا في هذه المرة. لقد عجزت تجربتهم وخبرتهم أمام هذا المريض النموذج.

وأخيرا، حمل في عربة إلى الطبيب. وفحصه الطبيب، وأعاد فحصه، وتأمله كثيرا. ولكنه لم يقل شيئا، حيث اكتفى بتسجيل بعض الأدوية على ورقة بيضاء، مع شرح لكيفية استعمالها.

وكذلك عادوا به إلى المترل، وإلى فراشه، و لم يقولـــوا شـــيئا كانوا ينظرون إليه، ثم ينظرون إلى بعضهم، وقد خيم الصمت عليهم ثم انسحبوا وتفرقوا، وتركوه لي وحدي، أتأمله ويتأملني.

ولم يمض من الليل إلا نصفه، حتى كان قد فارق الحياة. وأحسست حينها بفراغ رهيب، بحجم الكون. وبضياع لا مثيل له.

وثقل الليل، واشتدت وطأته. وما أشد وطأة الليل، عندما يكون بالقرب منك ميت، يشاركك بعض الأشياء، ويبعث فيك من الأحاسيس ما لم تتذوقه، وما لم تجربه في حياتك أبدا. صحيح أنني لم أبك، ولم أصرخ، ولم أجرؤ على فعل أي شيء، ولكن كل شيء في كان قد تخشب، أو تبلد، ولم يعد يستجيب.

كانت السماء مغبشة في ذلك اليوم، وكأن الحزن قد وصلها هي أيضا. وكان الجو ثقيلا برطوبته، وسحبه المتراكمة، ولكن المطر لم يترل بعد، ولم يكن هناك أي شيء يدل على أنه سيترل.

وكان اليوم يبدو كأيام الخريف المبكرة، التي تفاجئ الناس، وتحل بدون مواعيد.

حمل النعش إلى مثواه الأخير، وعاد الرجال من حيث أتوا ولكن على غير الطريق الذي سلكوه إلى هناك. فذلك ما تقتضيه العادة.

لم تبك عندما ذهبوا به، ولكنها بكت عندما عادوا بنعشه الفارغ. أحست بفراغ رهيب فبكت. مرة تبكي بدموع، وأخرى بلا دموع. وما أصعب أن يبكي الإنسان بدون دموع.

ولما كان الليل، لم يداعب النوم جفنيها. ولم تستطع أن تستريح. فراحت تحلق بخيالها بعيدا، في الماضي والحاضر. وحتى في المستقبل أيضا.

ففي تلك الليلة، قررت أن تسلك طريقا جديدا في حياتها. لقد قررت أن تصبح هي أيضا عارفة وخبيرة بالأعشاب وفوائدها، وهي مؤهلة لذلك. فقد كان لها أن أخذت عن أمها المرحومة،

بعض المبادئ في ذلك، حيث كانت رحمها الله، تريدها خليفة لها في المداواة بالأعشاب، وعارفة بأسرارها. ولكن الموت أخذها قبل أن تحقق أمنيتها، فتركت ذلك. وها هي الآن قد استفزتها أحاديث الناس عن الأعشاب وبخاصة أولئك الذين حاولوا معالجة زوجها المرحوم. فلم لا تكمل إذا في هذا الطريق؟

ولما كان السؤال، فقد كان القرار، وكان الحسم أيضا.

نظرت إلى السماء بعينين غجريتين، ولكنهما كانتا ذابلتين ومؤسيتين. ثم تنهدت بزفرة حارة من أعماقها، وكأنها أخرجت نفسها من بئر عميقة، أو كأنها استيقظت من حلم مزعج.

لقد كانت السماء مغبشة أيضا، وكان الجو ثقيلا ورطبا. ولكنها لم تمطر بعد. وليس هناك ما يشير إلى أنها ستمطر قريبا. إنه الخريف يمارس طقوسه، معلنا دورة أخرى من دورات هذه الحياة المميزة.

إنه الجو يتغير بسرعة، بحيث تشابهت فيه الأيام، وتقاربت وتداخل ماضيها وحاضرها. ولعلها تفعل ذلك، لكي تذكرنا بأشيائنا التي مضت، والتي يجب ألا تنسى، وألا تغيب عن ذاكرتنا المتعبة.

ذهب الذين نحبهم، وتساقطت أوراقنا في هذا العمر، وتجردنا من أشيائنا الجميلة، كما تتجرد الأشجار من أوراقها الخريفية لقد تفرقوا بدون استئذان. بعضهم انتهى، وبعضهم اختفى، وبعضهم الآخر اختار لنفسه من الطرق أصعبها. وبقينا نحن مشتتين، نلملم أنفسنا، ونجمع شتاتنا من هنا وهناك.

## -6-

في يوم ما، عندما كانت القوة، وعندما كان الشباب، وكانت الفتوة، كنا نجد في الألم لذة، وكنا نجد فيه متعة. فكنا نبحث عن الألم، وكنا نتحداه. أما اليوم فقد أصبحنا نتحاشى اللذة، لما تجلبه لنا من ألم وتعب، حتى ولو كانت ممتعة.

تلك هي الحياة، وتلك هي أوجهها الأخرى. مرة نبحث عنها، ومرة نجانبها، أو نتحاشاها، ونبتعد عنها.

تتململ في مكانها. تحاول أن تستوي في جلستها التي طالت إنها تشعر بشيء من الوخز في ظهرها. تحاول أن تركز أكثر، لترى شيئا ما في الأفق الذي يتحداها من هناك، فتتحداه من هنا، وتحاول اختراقه وامتطاءه، والذهاب إلى ما هو أبعد. تحمل نفسها في رحلة للاستكشاف والتجلي.

تثبت بصرها هناك، في أعلى رابية وأجملها. تدغدغها. تهز أشجارها الباسقة. تخلخل صخورها الصلدة. تفتتها. تلهبها أشواقا ومحبة. تهدها. ثم تكمل رحلتها في الأفق.

حينها تبرز صورته، وقد امتزجت بكل شيء، ثم راحت تتخلص من كل شيء.

كان بهي الطلعة، جميل الصورة، شهي النظرة، طويل القامة، نحيفا، خفيف الروح، رشيق الحركة، حاد النظرات، ثاقب البصر. يشبهه أبوه بالذئب.

أطعمته في صغره من كبد الذئب، حتى يكون من فطنته. عاد أبوه وخاله ذات يوم من أيام الشتاء، وقد اصطاد أرنبا وذئبا. حينها تذكرت مقولة أمي كانت ترددها كلما توسمت ذكاء في أحد:

- يبدو أنك أكلت من كبد الذئب.

قررت أن أطعمه من كبد الذئب، حتى يكون كذلك. واستلطف أخي الفكرة وضحك كعادته، وعلق قائلا:

في المرة القادمة، سنحضر له كبد أسد.

كان ذكيا. مدحه كل معلميه، وأشادوا بذكائه الخارق، وأثنوا عليه كلما ذكروه. وتنبأوا له بما يشرح الصدر، ويبهج النفس. وزرع لنفسه محبة في كل النفوس التي عرفته، والتي سمعت به.

ولأننا لا نملك ما يمكن أن نحقق به رغبته ورغبتنا، في طلب العلم، واقتناء ما يستلزمه، فقد بعت ما ورثته عن أبي، لأضمن له السفر من أجل العلم.

كانت قطعة أرض صغيرة، ولكنها عزيزة علي، لأن فيها ذكرى والدي، ولأن فيها من آثاره، ما يحرك السواكن، ويعيد الأمل ويذكر بصور الماضي الجميلة لرجل أحب أرضه، وأعطاها ما تستحق من العناية، طول حياته. ومازال الحنين يشدني إليها، ويذكرني بكل جميل فيها. ولكنني لست نادمة على ذلك، لأن ما فعلته كان عن قناعة. ولو عاد بي الزمن مرة أخرى، ما فعلت

إلا ذلك، لأنه لم تكن لدى القدرة على قتل تلك الرغبة الجميلة، التي كنت أراها تزداد كل يوم، وتنفجر كل لحظة، كما تنفجر الينابيع الشتوية، في هذه الأراضي الخصبة.

كان شغوفا بالقراءة والتعلم إلى حد كبير، بحيث كان يقرأ كل ما تقع عليه يده من كتب، وأوراق، وقصاصات. يفعل ذلك بشغف ونهم وإعجاب. يستعير كل ما يقرأه من غيره. ولا يقع بيده مبلغ، إلا وأسرع ليشتري به ما يمكن أن يشتريه من كتب، كيفما كان نوعها.

بعت قطعة الأرض رغم حبي لها، وتعلقي بها. ثم جهزناه وأرسلناه إلى المدينة ليتابع تعلمه. وفي العطل، كان يعود إلينا محملا بالكتب، والأوراق التي يكون قد قرأها، أو يكون قد أحضرها ليقرأها أثناء عطلته، إذ لم تكن له في حقيقة الأمر عطلة أبدا. لأن كتبه لا تفارقه أبدا، في المترل، أو خارجه. في الليل، أو في النهار. يقرأ جالسا، أو ماشيا، أو مستلقيا، أو حتى وهو يتناول طعامه. قال لي خاله ذات يوم:

– يبدو أنك أطعمته أيضا، كبد فأر. لأن الفئران هي التي تعشق الأوراق.

كانت عطلة الربيع قد انتهت، وكان يبدو عليه شيء من القلق والوجوم. جمع أغراضه ذات مساء، وحضرت له زاده كالعادة ونام باكرا. تعشى، ونام قبل الجميع. ولم يقل شيئا. وفي الصباح نهض باكرا، وحمل أغراضه، وتسلل مع إشراقة الشمس، لينتظر قدوم الحافلة، التي ستقله إلى المدينة.

كان على وجهه شيء من الحزن والفرح معا. وكان هادئا. ولكن في داخله قلق.

خرجت وراءه أشيعه، ولم أكن أدري أنها اللحظات الأخيرة التي تجمعني به. ولعله لم يكن يدري ذلك أيضا. ولكنني كنت أشعر بشيء لم أستطع تفسيره آنذاك، ولم أكن أعرف سببه.

كانت عيناي منجذبتين إليه، ترقبانه، وهو يسلك الطريق في التواءاته، وارتفاعاته، وانخفاضه، إلى أن غاب.

تلك كانت آخر صورة له، تحتفظ بها هذه الذاكرة المتعبة. وذلك كان آخر عهد لي به. لم يلتفت، ولم ينظر وراءه إلى أن غاب.

وفجأة اختفى. فلم يعد إلينا في العطل التالية، ولم نعد نعرف من أخباره شيئا. وكل ما كان يقال لنا، عندما نسأل عنه، أنه اختفى.

ومع ذلك، فقد بحثت عنه كثيرا، وسألت من كان يعرفه، ومن لا يعرفه أيضا. ذهبت إلى المدينة، وتجولت في شوارعها، وسألت المارة فيها بدون استثناء. وقصدت المدرسة التي كان بها وسألت من وجدت هناك، ثم عدت بعد أن نال مني اليأس، وأنهكني التعب. وأخيرا فهمت.

لقد كان شابا، وكانت الثورة، أيضا، في أوج شبابها. وكانت هدفا ومبتغى، وحبا كبيرا. ورغم قناعتي بذلك، فقد كنت أتألم باستمرار، وأنتظر عودته المفاجئة باستمرار أيضا، أو رؤيته على الأقل.

وذات يوم، قال لي أبوه، وكان مكتفيا طوال تلك المدة بالصمت، قال لي:

– لقد فعل ابنك ما يجب أن يفعله كل شباب هذا الوطن. ولو كنت مكانه الآن، ما فعلت إلا ما فعله.

ولكنني كنت أما، وكان هو ابني الوحيد. فرغم مشاعر الاعتزاز، التي كانت تسيطر علي في أغلب الأوقات، فإن الألم أيضا كان كثيرا ما يأخذني، ويغرقني في بحوره المظلمة. وكذلك كانا يتناوبان علي. مرة للاعتزاز والأمل، وأخرى لليأس والألم.

وشيئا فشيئا، بدأت أعتاد وضعا جديدا، فقد راحت تمتزج في نفسي بعض الأحاسيس الغريبة، التي بثت في شيئا من النشوة والتيه، ولم تفارقني حتى الآن. بحيث صرت أنام بها، وأستيقظ عليها باستمرار، وانتظام. لقد اقتنعت أخيرا بأنه لابد أن يكون لهذه الأرض من يحبها أكثر، ومن يدافع عنها، وعن شرفها الضائع، وعزتها المسلوبة.

## -7-

مرت الآن سبعة أيام على مجيئها إلى هنا. كل يوم يليه يوم يشابهه، ولا يختلف عنه في شيء. تجلس أمام المترل. تتأمل الكون ترحل بأفكارها في الماضي، والحاضر وحتى في المستقبل. ثم تعد خائبة، متعبة. وعندما ينتهي اليوم تنام. وقد تحلم أو تعاود الرحيل، إلى أن يجئ الصباح، ويغمر النور الكون.

إنه اليوم السابع إذا. الأراضي سبع، والسماوات سبع، والأيام سبع.

كان اليوم جميلا، ومشرقا، ودافئا. وكانت السماء صافية بزرقتها المبهجة، التي تنطبق على الأرض في أفقها البعيد.

يقولون إن الأرض دائرية الشكل، مثل الرغيف الذي نصنعه بأيدينا لنأكله ويقولون إنها محمولة على قرن ثور، وهي كروية، أو بيضوية، أو بشكل بطيخة. وقد سمعت، وأنا صغيرة، معلم الصبيان يشرح لأطفاله "والأرض بعد ذلك دحاها" بمعنى بسطها، وجعلها واسعة مبسوطة لكل الناس. ضحكت آنذاك، وانسحبت دون أن يشعر بي أحد، لأنني لم أستسغ هذا الشرح، ذلك أنني تصورت هذا البسط مثل البساط، بدون ارتفاع أو انخفاض. إذ كيف تكون مبسوطة، وهي تحمل هذه الجبال الشامخة، وفيها هذه الفجاج والأودية العميقة.

مرت أمامها دجاجة سوداء اللون، كان يجري وراءها ديك تمكن منها أخيرا وبسرعة قضى حاجته منها، ثم انصرف. الدجاج من البيض، والبيض من الدجاج أيضا. والأرض بشكل بيضة، ونحن مبثوثون فوقها كالنمل. نحيا ثم نموت، ونترك إنسانا لكي يحيا ثم يموت. الأرض بيضوية الشكل إذا، ولكنها ليست بيضوية الحجم.

أسندت ظهرها على الجدار، ثم رمت برأسها إلى الوراء، وأغمضت عينيها. وربما تكون قد رحلت إلى بعض الأمكنة البعيدة، أو إلى بعض الأزمنة، التي تحتفظ لها ببعض الأسرار، أو ببعض الأشواق.

شعرت بلذة الرحيل، ولكنها أسرعت لتفتح عينيها.

لقد هاجمتها صور النار التي أتت على أشيائها، وصور القط الذي أحدث الكارثة، وصورة الكلب الوفي الذي قتله العسكر في ليلة مظلمة من ليالي الشتاء الباردة.

لقد كانت صورا مرعبة من صور ماضيها، الذي مازال يلاحقها، ويستفزها، في الحلم، في اليقظة.

لقد فكرت في ذلك كثيرا. فكرت في ابنها، وزوجها، ومترلها، وفكرت في نفسها أيضا. ستة أيام كاملة خصصتها لذلك.

فكرت، وأعادت التفكير. وفي كل مرة كانت تجد نفسها محاصرة بالموت، والنار. وعساكر الاستعمار يدوسون أشياءها بأحذيتهم الخشنة، ويقلبون سافل المترل على عاليه. ستة أيام كاملة مضت، والصور تتداخل، وتتزاحم، وتتراكم فوق بعضها. بعضها يثبت، وبعضها يتراجع، وبعضها الآخر يتماوج في ذهاب وإياب.

ستة أيام كاملة مرت، وهذا سابعها. إنه يريد أن يكون كسابقيه، ولكنها لا تريده أن يكون كذلك. تريده أن يكون شيئا آخر. لأنها لا تريد أن تفكر في ما فكرت فيه طيلة الأيام السابقة. تريد أن تضع حدا لمثل تلك الأفكار والذكريات، لتبدأ مرحلة أخرى، وحياة أخرى أيضا.

إنها تريد لهذا السابع أن يكون فاصلا بين سابقيه ولاحقيه، وبين ماضيها ومستقبلها، وبين ما كان، وما سيكون.

إن الحياة مستمرة حقا، ولكنها لا يجب أن تتسلسل مثل هذا التسلسل البليد. بل يجب أن يكون فيها تواصل، حتى لا ننجر فيها كما تنجر البهائم إلى ما تبتغيه، وما لا تبتغيه. وعلينا أن نعرف قيمة الفواصل في الحياة، وأن نتعلم وضع الفواصل في مسلسل حياتنا المتدفقة باستمرار، وبدون انقطاع.

آه. أعتقد أنني سأفعل شيئا مهما هذه المرة. وقد كان بإمكاني فعله قبل الآن، ولكنني لم أنتبه إليه كل هذه المدة. ومع ذلك، فقد آن الأوان. لقد أزفت الساعة، وحان الموعد. ولكل شيء موعده الخاص، ولحظة ميلاده التي لا يولد قبلها، ولا بعدها أبدا.

فلتكن الأرض اليوم دائرية الشكل، أو كروية، أو بيضوية، أو بأي شكل من الأشكال التي نعرفها، والتي لا نعرفها. وليفسر الشيوخ لفظ دحاها، أو محاها كما يحلوا لهم أن يفسروه. ولتكن محمولة على قرن ثور، أو على كف عفريت من عفاريت أصحاب البرهان، وأهل الحضرة. ولتكن ما تكون. فاليوم فاصل ومفصول. ونقطة للنهاية والبداية. فقد انتهى ما يجب أن ينتهي، وابتدأ ما يجب أن يبتدئ، واتضحت كل المبهمات، وزالت الشكوك.

استوت للمرة الثانية في جلستها المعتادة، وأسندت ظهرها إلى الجدار بارتخاء وتودد، مغمضة العينين. وكأنها تبحث عن ذاتها في ذاتها، أو عن شيء أضاعته في المجاهيل.

إنها لحظات قد تكون للضياع والتشتت، وقد تكون لاستعادة الذات، وامتلاك الضائع في الفلوات، بين التقبب، والتكور، وما بينهما من أشكال، لا يعرف أسماءها إلا من امتلك البرهان، وملأ المكان، وتفيأ في ظلال العرفان.

فتحت عينيها، واستعادت رؤيتها لما حولها، وأرسلت بصرها بعيدا، يشق الجبال، والوديان، والسهول. فبدت لها الأشياء على غير عادتها. وبدا لها الكون جميلا وعظيما، وكأنها تراه لأول مرة. فلم لا تفكر فيه؟ و لم لا تفكر في هذه الحياة البهيجة؟

كانت الشمس قد أشرقت منذ مدة، وبلغ دفؤها حدا أنعش ذلك الجسد المتكئ إلى الجدار في ارتخاء واستسلام. وبلغت لذتها حد الانتشاء والارتحال. وبدت الطبيعة جميلة، ومنسجمة مع نفسها. وفي الأفق البعيد غبش، ووراء الأفق المغبش أشياء للحلم والأمل. ومن جهات غير محددة تأتي أصوات مختلفة، للحمير، والكلاب، والأبقار، والدجاج، والخراف، والعصافير، والأطفال.

إنها لحظات تصلح للتأمل، ولاستعادة الحياة في طفولتها. ولكنها لا تريد الرجوع إلى ذلك. لقد قررت أن تفصل في ذلك، فلتفصل. وقررت ألا تنظر إلى الوراء، فلتتقدم. فقد خرج ابنها آخر مرة من المترل، وشق طريقه بين التلال، و لم يلتفت إلى الوراء. وكانت هي واقفة أمام المترل، تشيعه بنظرات تائهة، ولكنه لم يلتفت، راح يغرق بين التلال والهضاب، إلى أن اختفى، و لم يلتفت.

تلولبت الأشياء في داخلها، وراحت تنخز من كل الجهات تريد أن تحدث في النفس وفي الجسد مواجع أخرى. امتدت يدها إلى الوراء، تتحسس حجرا ناتئا في الجدار الذي أسندت ظهرها إليه. إنه ينخز هو أيضا، ويترك موجعا. فكرت عدة مرات في نزعه، أو تسويته، حتى لا يزعجها. ولكنها لم تفعل بعد. إنه من الأشياء التي يمكنها أن تؤجل. ومن بعيد، جاءتها أصوات الأطفال في الكتاب، وقد ارتفعت في نبرة حادة. إنهم يقرأون ويعيدون آيات وسورا قرآنية، بطريقة انفرادية. ويبدو أن آلة الشيخ الزيتونية قد تحركت، فاستجاب لها الأطفال برفع أصواتهم، وبذل المزيد من الجهد، قصد اتقاء لسعاتها الحادة، التي لا تختار لها مكانا محددا من الجسد الطري الذي لا يستطيع المقاومة والتحمل. وبين حين وآخر يعلو صوت على غيره من الأصوات، فيتميز لحظة، ثم ينخفض لينسجم بعد ذلك مع غيره حين يقل الشعور بالخوف، ويهدأ غضب الشيخ، وتستقر آلته.

كم هي بريئة هذه الأصوات، وكم هي جميلة ورائعة، وهي تــأتي من هناك بدون انتظام، وبدون انسجام. منها ما يرتفع، ومنها ما ينخفض. إنها تذكرها بطفولتها وبماضيها.

مازال هذا الماضي يلاحقها حتى في يوم الفصل.

منذ صغرها، كانت تحب الاستماع إلى الأطفال، وهم يقرأون بأصوات مرتفعة. كانت تجلس وقد أسندت ظهرها إلى جــدار الكتاب، مسترقة السمع والحفظ، حتى استطاعت أن تحفظ جزءا كبيرا من القرآن. وهو ما أدهش الأب، والأهل كذلك، فيما بعد.

وحير الأطفال، وجعل الناس، وعلى رأسهم شيخ الكتاب، يثنون عليها باستمرار. حيث أصبحت مضرب المثل في الذكاء، والسيرة، وحسن الأخلاق. وأصبح اسمها مرددا على كل لسان، وحاضرا في كل مكان.

كان أبوها، الحافظ للأسرار، أول من اكتشفها متلبسة باستراق السمع، واستراق الحفظ. فقد خرجت ذات يوم من المترل، وتأخرت في العودة إليه، ولما راح يبحث عنها، وجدها جالسة خلف الكتاب، وقد أسندت ظهرها إلى الجدار، وراحت في نوم عميق، مثلما هي فاعلة الآن.

جلس إلى جانبها لحظة، ثم أيقظها برفق، وراح يسألها، فباحت له بالأمر، وانكشف سرها. ولكن أباها فرح بذلك فرحا شديدا ومنذ تلك الحادثة، قرر أن يزيد في تعليم ابنته بنفسه. فراح يسهر على تحفيظها ما لم تستطع حفظه بعد، من القرآن، ومتن ابن عاشر. وعلمها القراءة، والكتابة بالخط المغربي الجميل. فأجادت رسمه، وتفقهت في أسرار الحروف، وفي أسمائها، وتشبيهاتها. مثل الدال بوجنحين، والكاف رقبة الجمل، والهاء أم كريشتين، والواو الأعور والعين فم الذيب، وغيرها.

أشرق وجهها، ولمعت عيناها، وكأنها قد رأت شيئا مبهجا ولكنها في حقيقة الأمر لم تر شيئا من ذلك. وإنما تذكرت فقط أشياءها الجميلة، فبدت لها الحياة جميلة أيضا. وغمرها شيء من الشعور بالمودة، وإحساس بالحب لما مضى، وهي في يومها الفاصل. ثم عادت من رحلتها المفاجئة، إلى تلك الأصوات البريئة والجميلة، التي مازالت تصلها في غير انتظام، وتبعث في نفسها شيئا من الأمل، والابتهاج.

لقد كان الماضي جميلا، وسيبقى كذلك. ولكنه سيبقى للذكرى فقط. ففي تلك اللحظة ازداد إصرارها على ضرورة الفصل، إذ سيكون اليوم السابع هو الفاصل بين أيامها الماضية، وأيامها القادمة ولكنها لم تكن تدري لماذا فكرت في أن الحياة جميلة، وأنها تستحق أن يعيش الإنسان لأجلها، وأن يموت من أجلها أيضا. فلعل الذين ماتوا، كان موتهم، جميعا، من أجل هذه الحياة. ولعل الذين يعيشون هم أيضا، يعيشون لأجلها. فلتكن الحياة إذا، هدفا في موتنا، وهدفا في حياتنا.

## -8-

عندما يستيقظ الإنسان في بداية يومه، تكون هناك فكرة ما تسيطر عليه، وتطبع يومه، وسلوكه، بطابع مميز. قد يكون فرحا، وقد يكون حزنا، وقد يكون شيئا آخر، لا يعرفه حتى الذي يعانيه نفسه، ولا يجد له تفسيرا.

ففي صبيحة من أصباح تلك الأيام، التي تعودت فيها زهو البال الجلوس أمام مترل ابنتها أم السعد، والتأمل في الطبيعة والحياة، لاحظت أن فكرة الموت تلاحقها حيث حلت. تجلس، أو تمشي، أو ترحل كعادتها في أعماق ماضيها، بما فيه من فرح وحزن، ووضوح وغموض. وقد حاولت أن تبعد عن نفسها تلك الصورة التي تلاحقها،

أو تنشغل عنها بشيء آخر. إلا أنها لم تستطع أن تتخلص من فكرة الموت، ولا من صورته، التي ظلت ماثلة، تلاحقها في كل حين إنها أقوى بكثير من محاولاتها في الصمود، أو الهروب.

منذ أن استيقظت من نومها، في هذه الصبيحة، وهي تحاول أن تبدو هادئة، وعادية، حتى مع نفسها، في حركاتها، وفي سكناتها. ولكنها لم تستطع. فكرت في يومها السابق، الذي قررت أن يكون فاصلا في حياتها. وراجعت كل أحداثه،

من بدايتها إلى نهايتها واختلطت في ذاكرتها أشياء كثيرة. طغى على جميعها الغموض، والقلق. وراحت تراجع نفسها وتعيد، هل هو الفصل يكون بهذا الشكل؟ ويأتي بهذه الصورة المزعجة؟ أم هو العجز عن الفصل؟

كان القلق والاضطراب. وكانت الحيرة، وعلامات الاستفهام المتساقطة عليها في كل لحظة، وبكل الأشكال، والأحجام، والألوان. حاولت الإخلال، حتى بوعدها في الفصل، فقد راحت تحاول الغوص من جديد في الماضي، القريب منه والبعيد، لعلها تخلص نفسها مما هي فيه. ولكن الماضي كان فيه، أيضا، ما تريد أن تتجنبه. فها هي صورة الموت تبرز هنا وهناك، بكل وضوح، وبكل تحد. فتلك صورة أبيها الحافظ للأسرار، حين سجي في كفنه، وفي ركن من أركان المنزل، قبل دفنه، وبجانبها صورة ابنها الصغير، وقد شوهت الحروق جسده الغض، وحولته إلى كتلة لحمية مشوهة، تثير الرعب والفزع. ثم صورة زوجها، وهو يعاني سكرات الموت وطعناته بين يديها، وهي تتألم معه، وتتلوى مثلما يتلوى. ولا تستطيع أن تفعل شيئا من أجله. فقد خانها كل شيء، حتى دموعها خانتها.

إنها صور مرعبة تتزاحم أمامها، وكل منها يريد أن تثبت وكل واحدة منها تريد أن تزيح الأخرى، لتبرز. والكل مخيف ومرعب. والكل يتحداها في قرار الفصل الذي قررته. شيء ما يتحرك في داخلها ويتشكل في صورة لم تتضح بعد. وهي لا تستطيع مقاومته، أو صده ولكنها لا تريده، بأي حال من الأحوال، أن يكون أو يتشكل.

لقد سمعت أبي الحافظ للأسرار، يقول: إن النسيان نعمة على البشر. والآن فقط فهمت معنى ذلك. ولكنني أجدني قد حرمت هذه النعمة، ولذلك تجد هذه الصور بفظاعتها، طريقها إلي وتتحداني ولا أستطيع التخلص منها، ولو للحظات قليلة.

ومع اقتراب الليل، كان القلق يزداد، وفكرة الموت حاضرة، فاليوم الفاصل إذن، لم يكن فاصلا في حياة زهو البال. وقد بدأ يظهر على وجهها شيء من الارتخاء والذبول. ولم تعد نظراتها حادة كعادتها. ولا ظهرها ملتصقا إلى الجدار، كما كان في بداية اليوم. فرجلاها ممدودتان بتواز، ويداها تلتئمان في حجرها، وقد تشابكت أصابعها. وظهرت على وجهها ملامح الحزن، ومكابدة الخوف، ومطاردة المجهول.

لعلها أجهدت نفسها وأفكارها في الأيام السبعة السابقة، عندما كانت تجلس من الصباح إلى المساء، جلستها البوذية، متكئة بظهرها إلى الجدار، راحلة في ماضيها الذي يستحوذ عليها بكل قوة قبل أن تقرر الفصل، وتحدد يوم الفصل بين ماضيها ومستقبلها. وبخاصة عندما كانت تتذكر الحوادث الكبيرة في حياتها وتتوقف عندها طويلا، كحادثة موت ابنها الرضيع، وحادثة زوجها، أو حادثة احتراق منزلها في المرة الأولى، ثم في المرة الثانية.

ولما كان الليل قد خيم على الكون، وفرض سلطته، انسلت زهو البال إلى منزل ابنتها للمرة الثامنة، بعد مجيئها، وللمرة الأولى بعد أن قررت قرارها الفاصل. مر بالمنزل في بداية الليل، رجل غريب، وطلب لقاءها على انفراد، لشيء يخصها، كما صرح بذلك لزوج ابنتها، وهو يبتعد قليلا عن المنزل، في انتظار خروجها إليه.

إنها لا تعرف هذا الزائر الليلي، وما كانت تتوقع، أو تنتظر مثل هذه الزيارة. ولذلك، فهي قلقة جدا. توكأت على يدها اليمنى، ودفعت بجسدها المتعب والمضطرب، ثم قامت لتقابله خارج المترل، حيث ينتظرها.

ولما أصبحت خارج المترل، راحت تدقق النظر، وهي تقترب منه. كان طويل القامة، ممتلئ الجسم، يلفه الظلام من كل الجهات، فلا تبدو له ملامح تميزه. وبقدر ما اقتربت منه، بقدر ما زادت تدقيقا وتركيزا، محاولة معرفته، أو تبين ملامحه التي لم تجد فيها أخيرا، ما يوحي بأنها رأته في يوم ما. ومع ذلك، فإنها تقترب منه أكثر. فقد تعمد أن يبتعد قليلا عن المترل، ثم يقف لينتظرها هناك ثم كان بينهما حديث، أخذ بعض الوقت، ولم يسمع منه شيء. لقد كان همسا خفيفا. بدا فيه الرجل الغريب يتكلم بصوت خفيض، ورأسه يدور من جهة لأخرى، وكأنه يتفقد المنطقة وما فيها. بينما بدت زهو البال جامدة الحركة، مشدودة الفكر والسمع. ولم يسمع منه في النهاية إلا آخر ما قاله، قبل أن يغادر:

تصبحين على خير.

وبعد أن خطا عدة خطوات، التفت، ثم أكمل طريقه في اتجاه الجنوب. لقد شعر، وهو يبتعد، أنها لم تفارق مكانها، فأراد أن يتأكد. أو لعله أراد أن ينبهها إلى ضرورة العودة إلى المترل. وكذلك كان الحال.

فبعد تلك اللفتة، طأطأت رأسها، وراحت تجر نفسها نحو باب المترل صامتة. ثم اختفى الاثنان. اختفى الرجل في ظلام الليل الذي ابتلعه، وولجت هي باب المترل الذي صر من ورائـــها،

قبل أن يتكئ ويستقر. ولكن أبوابا أخرى سمعت أيضا، وهي تصر. ثم استقر كل شيء، وخيم الصمت على المنطقة كلها. وراح الليل، بظلامه، يبتلع الأشياء بدون استثناء.

ولما انتهت الزيارة، كان كل شيء قد تغير. فقد دخلت زهو البال مسرعة، ثم انزوت. وراحت تبكي في صمت وحزن شديدين. ولم تستطع أم السعد أن تعرف من أمها شيئا، إلا بعد جهد جهيد، ومحاولات مضنية، تعانقت فيها الأم وابنتها، وبكتا معا، كانت الأم تبكي، وهي تعرف بعض الشيء عن سبب بكائها، وكانت البنت تبكي فقط لبكاء أمها. وأخيرا، استطاعت الأم أن تتكلم، وتقول شيئا عن سبب تلك الزيارة الليلية المفاجئة، لذلك الرجل الغريب.

لقد كان الرجل يخبر ويستفسر في آن واحد، عن ابنـــها، (بهي الطلعة) الذي فقد مع بعض رفقائه من المجاهدين، وفي إحدى المعارك الكبيرة، مع جيوش الاستعمار، والتي دارت رحاها في منطقة البر الخالي، إذ لم يعثر عليه، لاحيا ولا ميتا. ولذلك عد من المفقودين الذين يجب البحث عنهم في كل مكان، مع الأحياء، ومع الميتـــين.

وفي اليوم الموالي، لم تستطع زهو البال أن تخرج من المترل كعادتها لتباشر ما بدأته من تأملات، ورحلات في الماضي، ومن قرار في الفصل بينهما. فقد لازمت الفراش بعد ذلك أياما وليالي حتى أشرفت على الهلاك. ولم ينفعها إلا بعض الحشائش التي راحت تطلبها، وتتطبب بها، بمساعدة ابنتها أم السعد ومن ذلك، صناعتها "السبسي" الذي صارت تدخنه كثيرا، لتقهر به ألما حادا في صدرها وتسكت به سعالا يكاد يقطع أنفاسها، كلما فاجأها.

وقد زارها الناس، نساء ورجالا، لمؤازرتها في محنتها، ومواساتها في نكبتها. فكان منهم من تعرفه، ومن لا تعرفه. فتحدثت إليهم جميعا، وأحسنت استقبالهم جميعا. ولكنها لم تبتسم أبدا. ومن الزائرين من قال كلاما له معنى، ومنهم من قال كلاما ليس له معنى. فالمهم عندهم أنهم زاروا، وواسوا، وقالوا ما قالوه. فمنهم من نهرها عن البكاء المستمر، ومنهم من شجع عليه، ومنهم من نصحها بالحركة، والخروج عن عزلتها، والتحدث إلى أي كان، مع الأكل الكثير، وتناول نقيع النباتات الطبية، المساعدة على تلطيف المزاج، وبعث الأمل والنشاط، وتقوية البدن. ولكنها كانت تنظر إليهم، ولاترد. وكأنها بذلك، ترثي لحالهم قبل حالها.

ثم إن شيئا ما بداخلها، قد بعث فيها النشاط فجأة، وحرك فيها الكوامن. إنه التحدي، الذي ربيت عليه، ثم راح ذلك الشيء يتجذر في كيانها، ويلازمها طول حياتها. لقد تحرك هذا الكامن فجأة فاستجابت له.

ففي يوم من الأيام طلبت من ابنتها أم السعد، أن تحضر لها مرآة، ثم نظرت إلى نفسها فيها متأملة ومتعجبة للحالة التي صارت عليها. ثم سألت نفسها في صمت، و لم تتكلف عناء البحث عن جواب للسؤال:

أهذا هو وجهك يا زهو البال؟

ثم رمت المرآة جانبا، ومالت إلى الوراء، وقد أغمضت عينيها. ولعلها رحلت إلى مكان ما، أو إلى زمن من أزمنتها الغريبة أو لعلها فكرت في شيء من أشيائها الخاصة، التي تختزنها في أعماقها.

وما هي إلا أيام قليلة، حتى كانت قد حزمت أمتعتها البسيطة وخرجت، ولم تقل شيئا. فقد قررت إذا قرارها الأخير.

جمعت أغراضها في منديل أسود، ثم ربطته جيدا ورمت به على ظهرها، بواسطة عصاها التي ورثتها عن أبيها الحافظ للأسرار. ثم لاحت، وبكل عزيمة، أولى خطواتها نحو الجنوب.

كانت بداية النهار، وكانت الشمس تختفي بين حين وآخر، وراء قطع سحابية تعبر السماء نحو الشرق. وعندما ابتعدت قليلا، التفتت وراءها. ولكنها لم تتوقف. فقد كانت ابنتها أم السعد، مازالت واقفة أمام باب المنزل، تشيعها في صمت وتعجب. ثم انسحبت داخل المنزل، ولم يبق هناك إلا بعض الأطفال يتأملون المنظر الذي يبدو، وكأنه قد راقهم. وعلى شفاههم بعض التعاليق الصبيانية، التي راحوا يتبادلونها.

وفي المساء عادت.

فحينما كانت الشمس تعلن غروبها في الأفق، كانت زهو البال قد لاحت من بعيد، وهي عائدة بخطى بطيئة. وقد بدا عليها التعب، والحزن. وعند باب المنزل، وجدت ابنتها أم السعد، التي أسرعت فأخذت عنها رزمة أغراضها، ودخلت وراءها في صمت وهدوء.

وفي الليل، استلقت ورحلت بأفكارها، مخترقة ظلام الليل وهدوءه. ثم غلبها النعاس فنامت، ورأت من الأحلام ما أزعجها، وأبعد النوم عنها.

وفي صباح اليوم التالي، خرجت لتتمتع بأشعة الشمس الدافئة. فجلست تحت شجرة الدردار المحاذية للمنزل، من الناحية الغربية، وأسندت ظهرها إلى جذعها الهرم. ثم راحت تدير حبات سبحتها، ذات الثلاث والثلاثين حبة، والتي ورثتها عن أبيها المرحوم الحافظ للأسرار. والذي أحضرها من البقاع المقدسة، عندما ذهب راجلا لأداء فريضة الحج. ومازالت تذكر إلى الآن، أنه أحضر أيضا قطعة من القماش الأبيض، ظل يحتفظ بها في صندوقه الخاص، إلى أن وافاه أجله، فكفن فيها.

كان اليوم جميلا، وكانت الشمس دافئة، وهي تداعب ساقيها اللتين مددتهما خارج الظل. وكان الجو لطيفا، ومنعشا. ولكن القلب كان مفعما بالحزن، الذي طغى على كل شيء، وحجب روعة كل شيء. فقد غطت صورة ابنها، بهي الطلعة كل ما حولها، وثبتت أمامها في أشكال وأوضاع مختلفة، من طفولته إلى شبابه.

## -9-

لم تكن حركة زهو البال، بعد أن حلت بالدشرة، حيث تقيم ابنتها أم السعد، تزيد عن جلسة معتادة، وهادئة أمام مترل ابنتها، التي لم تنجب أطفالا بعد، رغم طول المدة التي مرت على زواجها. أو تجلس تحت شجرة الدردار بالقرب منه، إلى الجهة الغربية. أو ربما قامت بجولة انفرادية تأملية، في الضاحية الغربية للدشرة. عدا يوم أمس، حيث شوهدت وهي تحمل بعض أغراضها على ظهرها معلقة بطرف عصاها، وهي تتجه نحو الجنوب، في رحلة دامت يوما كاملا، لا أحد كان يعرف هدفها، ولا الغرض منها.

أما اليوم، فإنها قضت أغلب أوقاته تحت شجرة الدردار، جالسة متوحدة، تدير حبات سبحتها حينا، وتوقفها حينا آخر، عندما تهاجمها الأحداث متشابكة. أوحين تطغى عليها صورة ابنها بهي الطلعة. إلى أن غابت الشمس، وانقطع دفؤها اللذيذ، فانسلت إلى المترل كعادتها، لتبدأ رحلة من رحلاتها الأخرى.

* * *

كانت نسمات الصباح منعشة، تبعث في النفس انشراحا، وتشجع على فعل شيء ما، في هذه الحياة. لكن الشمس لم تكن قد أشرقت بعد. وهاهي زهو البال تخرج من المترل، وقد جمعت أغراضها،

ولفتها في منديلها الأسود. أو لعلها لم تفكها منذ أول أمس إلاّ أنها في هذه المرة كانت تجر وراءها حمارا قميئا، هو حمار زوج ابنتها أم السعد، المشهور في المنطقة كلها بحجمه المتواضع جدا، ولونه الرمادي الداكن. جرته وراءها قليلا، ثم امتطته بصعوبة. ولما استوت على ظهره، راحت تحرك رجليها، وجسدها كله، تأمره بالسير، وهو يستجيب.

ولأول مرة، يشاهد هناك، من كان خارج مترله، في تلك اللحظة، زهو البال وهي تمتطي حمارا، وتغادر الدشرة باتجاه الجنوب. وفي طريقها، لاحظت حركة، وأحست أن هناك من يرقبها لقد كان شيخ الدشرة، وإمامها، ومعلم صبيالها. إنه يتوضأ للصلاة. ولما رآها، توقف عن وضوئه لحظات، مبسملا، ومحوقلا. ثم راح يصب الماء على رجله الأيمن في غير انتظام.

لم تلتفت إليه زهو البال، ولم تعره أي اهتمام. إن كل واحد منهما الآن، يمارس طقوسه الخاصة.

لقد قررت أخيرا، أن تباشر بنفسها البحث عن ابنها الفقيد، بمي الطلعة. وها هي الآن قد حددت وجهتها، إلى حيث وقعت المعركة الطاحنة، التي فقد على إثرها، مثلما أخبرها ذلك الزائر الغريب، ذات ليلة.

لقد وقعت المعركة في البر الخالي، وهي تبعد مسيرة نهار كامل لرجل مقتدر. وهي منطقة جبلية وعرة، تغطيها غابات كثيفة، وتتعانق فيها أشجار مختلفة الأنواع والأشكال. وقد سميت بالبر الخالي، لأنها أخليت من سكانها، وحرم الدخول إليها على أي كان، من الإنسان أو الحيوان.

لقد كانت أولى محاولاتها في البحث عن ابنها، بالأمس. ولكنها لم تنجح وعادت من منتصف الطريق، إذ لم تستطع بلوغ البر الخالي في الوقت المناسب. فرأت أن تعود، لتبدأ من جديد في اليوم التالي. وكذلك كان الحال. وقد استعانت هذه المرة، بحمار قميء لزوج ابنتها، لا يستعمل، لضآلته، إلا لجلب الماء من النبع، كما يتهافت الأطفال على ركوبه، كلما وجدوا غفلة من صاحبه.

إنها تستعين به هذه المرة، رغم تشاؤمها من لونه الرمادي فهي أول تجربة لها معه، وأول تجربة له في السفر الطويل، والقيام بعمل بالغ الخطورة. وقد يصبح له شأن كبير، بعد العودة من هذه السفرة المتميزة، التي تعلق عليها زهو البال آمالا كبيرة، في العثور على ابنها بهي الطلعة. ويعلق عليها هو أملا كبيرا في الشهرة. وربما سيجنبه ذلك، ما يعانيه من مضايقات، وسوء معاملة، وبخاصة من الأطفال، الذين يستعملونه وسيلة لتعلم الركوب، فيعاني منهم الأمرين.

عندما تنظر من بعيد، ترى صورة غير متجانسة، بين امرأة كاملة القامة على ظهر حمار ضئيل، رافع الرأس، يسير سيرا غير منتظم، وهي تحثه تارة بعصاها، ومرة بحركات من رجليها. وقد ضمت إليها كتلة سوداء، هي كل أغراضها التي جمعتها في منديلها الأسود.

إنها الآن لا تفكر إلا في شيء واحد، هو أنها لو سارت بهذه السرعة، فإنها ستصل البر الخالي بعد منتصف النهار. ولكنها تدرك أيضا، أن الحمار سيخفض رأسه، وسيخذلها بعد حين، عندما ينال منه التعب والجوع. وحينها ستضطر إلى النزول، والسير على أقدامها، لتمنحه فرصة للراحة، واستعادة النشاط، وستسمح له أيضا بين حين وآخر، بقضم بعض الأشواك، والحشائش، المنتشرة هنا وهناك. وأنه سيفعل ذلك رغما عنها.

ولما أشرفت على منطقة البر الخالي، كان الوقت قد تجاوز الظهر بقليل ولذلك ارتأت أن تتوقف قليلا، لتتأمل المنطقة أولا، ثم لتؤدي صلاة الظهر، وتمنح الحمار فرصة للاستراحة، وقضم المزيد من الأعشاب. ثم بعدها راحت تتوغل في المنطقة، لتبدأ بحثها في سرية تامة، مرة راكبة، وأخرى راجلة، تجر الحمار وراءها متفحصة كل مكان هناك، واضعة كل الاحتمالات، الممكن منها، وغــير الممكن.

وكذلك قضت بقية اليوم، تبحث دون توقف، قاهرة التعب الذي أصابها، وبدأ يؤثر على حركاتها. ولما اقتربت الشمس من المغيب، وأدركت أن الليل سيداهمها هناك. استقلت الحمار وانسحبت في اتجاه الغرب، تبحث عمن يأويها إلى أن يأتي نهار آخر.

واستمرت على تلك الحالة، عدة أيام. في النهار تدخل البر الخالي لتبحث عن ابنها، وفي الليل تتركه، لتبحث عمن يأويها، إلى أن يجئ الصباح، فتعاود الكرة مرة أخرى.

ولما كان اليوم السابع من بداية بحثها عن ابنها الفقيد، بهي الطلعة قد بدأ يعلن انتصافه، كانت هي تجلس تحت شجرة بلوط عاتية وقد أخذ منها التعب، وسكنها القلق، وحاصرتها الوساوس والاستفهامات، من كل الجهات، فراحت تقلب الأمر على عدة أوجه، فتتفحص كل وجه وتعيده. ثم راح يراودها احتمال طارئ، ولكنه ليس غريبا. لعل الذئاب التي أطعمته كبدها ذات يوم تكون قد فعلت به ما فعلت؟ ولكنها راحت تستبعد هذا الاحتمال، باعتبار أنها لم تصادف أي أثر لبقايا جثته، أو لباسه، أو أي شيء يشير إلى ذلك.

وعندما كانت أفكارها تتماوج، استقر بصرها فجـأة علـى فتحة مغارة، خلف تشابك كثيف لبعض النباتات والأشواك. وحينها، أحست أن نبضات قلبها تزداد، وأن كل ما كان يراودها من أفكار، قد توقف. بل انقطع. ووجدت نفسها تحاول بواسطة عصـاها، أن تخلق منفذا، تقتحم من خلاله تلك المغارة، التي شدت انتباههـا، وبعثت فيها إحساسا غريبا، هو خليط من الحـيرة، والخـوف، والرغبة، وأشياء أخرى لم تستطع تحديدها آنذاك، وهي تنـدفع نحو فوهة المغارة، مقدمة عصاها، فاتحة لنفسها ممرا بين الأشواك، والنباتات المتشابكة

وكم كانت دهشتها، عندما لمحت بداخله شخصا ممدودا على ظهره، وقد مال رأسه قليلا إلى الوراء، وهو يحتضن بندقيته، كما نحتضن أشياءنا العزيزة، في لحظة من لحظات الحب العارم.

توقفت لحظة، لتهاجمها بعض الاحتمالات. لعله نائم، أو لعله ميت. أو هو جريح. الجرح لا، أما الموت، أو النوم، فاحتمال وارد جدا. مرت أمامها صورة مسرعة لأهل الكهف، التي تختزنها الذاكرة. لم يكونوا أمواتا، بل كانوا في حالة نوم عميق. تلك كانت معجزة. فهل هي معجزة أخرى أيضا؟

ثم راحت تتقدم نحوه بهدوء وتفحص، لترى فيه أخيرا صورة ابنها، إنه بهي الطلعة، الذي فارقها منذ مدة طويلة. إنه هو، بجسمه النحيف، وشعره الناعم، وبشرته البيضاء. ناصع الأسنان، عسلي العينين. في خده الأيسر خال بني اللون، دائري الشكل، بحجم حبة العدس.

امتدت يداها إليه برفق وحنان، وراحتا تلامسان وجهه، وشعره. ثم جلست إلى جانبه، واحتضنته إلى صدرها.

كان يحتضن بندقيته، وكانت هي تحتضنه. فكل منهما يضم شيئا عزيزا عليه. ثم، سجته أمامها على الأرض، وجلست تتأمله، مثلما كانت تفعل معه في طفولته، حين ينام بين أحضانها، ثم تضعه في فراشه وتجلس إلى جانبه.

لقد حاصرتها الذكريات من كل الجهات، واختلطت عليها الأزمنة، وتشابكت الأحداث.

كانت عيناها جامدتين، ولكنهما كانتا تشعان كشرارتي نار ملتهبتين. لم تبك، ولم تسقط منهما دموعا. فقد انتهى كل شيء الآن وتوقف الزمن، ولم يعد هناك أي معنى لماضيه، أو حاضره، ولا حتى لمستقبله. واختلطت الأشياء، وضاع الفاصل والمفصول، وفقد كل شيء معناه.

امتدت يدها مرة أخرى تتحسسه، وتفتش جيوبه الخارجية، ثم الداخلية. ولم تعثر فيها إلا على علم صغير، بحجم كف اليد، وورقة بيضاء مطوية، فتحتها فوجدتها مقطوعة شعرية بخط يده.

إنها تعرف خطه المغربي الجميل، الذي يشبه خط جده الحافظ للأسرار. فتأملتها مليا، ثم قرأت:

في البدء كنت محبة

ومودة

يا أيها الوطن الذي

سكن القلوب فأينعت

زرع الورود فأزهرت
أنت الذي علمتنا سر الهوى
وملكتنا
جدد لنا محبة
إن الزهور تموت في أكمامها
كي لا تموت محبتك

أعادت قراءة المقطوعة الشعرية عدة مرات. ثم طوتها، وضمتها إلى العلم الصغير، ودستهما معا في صدرها بين ثدييها. ثم رحلت بذاكرتها بين صور الماضي وأحداثه، والحاضر ومفاجآته.

أطالت الجلوس إلى جانبه، والنظر إليه، والرحيل في ماضيه. ثم عادت من رحلتها، واستقرت عنده.

كان الجرح عميقا في صدره، وآخر في ساقه. لقد كان يقاوم العدو وجها لوجه. ولما جرح، لم يجد من يسعفه، فالتجأ إلى هذه المغارة المعزولة، وظل جرحه ينزف، إلى أن مات. لقد سقى بدمائه هذه الأرض العطشى، وأعطاها كل ما في جسمه النحيف من دماء ومحبة.

ثم امتدت يداها إلى التراب، وأخذت منه حفنة جافة، مشبعة بدمائه. وراحت تقبلها، وتشمها، وتطيل النظر فيها. وأخيرا أخرجت من صدرها قطعة قماش، وصرتها فيها بعناية، ثم دستها بين ثدييها الناشفين منذ سنوات، لتستقر هناك إلى جانب العلم الصغير وقصيدة الشعر. ثم قامت وتحركت وسط الغابة، تجمع أعوادها تحت شجرة بلوط مقابلة للمغارة، حيث يتمدد ابنها الفقيد الشهيد،

بهي الطلعة. ولما جمعت ما رأته كافيا من أعواد الغابة، راحت تمددها على الأرض في نظام معين وتشبك بعضها، ثم تربطها ببعض الخيوط التي أخرجتها من كيس خاص. وبذلك صنعت في النهاية محملا لابنها الفقيد الشهيد، الذي راحت تخرجه بعد ذلك من تلك المغارة بعناء شديد. ثم مددته على المحمل الذي كانت قد أكملت صنعه. وحملته على ظهر الحمار، وعادت أدراجها من حيث أتت.

كانت الشمس قد مالت أكثر نحو المغيب. وهي تختفي بين حين وحين، وراء بعض القطع السحبية المتناثرة في زرقة السماء الفسيحة. وكان الشهيد ممددا في محمله على ظهر الحمار. وإلى جانبه بندقيته المغطاة ببعض الأغراض التي أخرجتها من منديلها الأسود، الذي غطت به جزءا علويا من جثته.

لو كان حيا، لاختار أن يعانق بندقيته، ويتمتع بجمال الطبيعة. وبخاصة زرقة السماء، التي تداعبها قطع السحاب البيضاء المتناثرة هنا وهناك، تلاحق بعضها في اتجاه الشمال، وكأن لها هدفا تقصده، وواجبا تؤديه.

إنها تحاول الآن أن تسرع بعض الشيء في مشيتها، وقد طاوعها الحمار في ذلك. إنه يحمل الآن شيئا عزيزا، فليطاوع. فسيكون له هو أيضا، ومنذ الآن، شأن عظيم. إذ يكفيه فخرا أنه حمل على ظهره جثمان الفقيد الشهيد، بهي الطلعة. ويكفيه فخرا أيضا، أنه صال وجال أياما كاملة، في منطقة البر الخالي. لذلك يجب أن تتغير حياته منذ الآن، وأن تكون له في الحياة مكانة تقيه، على الأقل، أذى الأطفال.

أما زهو البال، فإنها الآن تفكر في من سيساعدها على دفن ابنها، أو من يأويها هذه الليلة أيضا.

* * *

ولما كان الليل قد بدأ يخيم على الكون، ويتهيأ لإعلان سطوته. كانت هناك عدة أشباح تتحرك على قمة إحدى الروابي النافرة. وبعيدا عنهم حمار صغير، يبدو منشغلا بقضم الأعشاب والأشواك.

تلك كانت زهو البال، وبعض من جاء لمساعدتها في دفن ابنها الفقيد الشهيد، بهي الطلعة. فقد تعمدت أن تختار له مكانا مرتفعا يدفن فيه، لكي يكون عاليا في المقام، باديا للعيان، وحارسا للمكان، وشاهدا على هذا الزمان.

## -10-

عادت زهو البال من رحلتها إلى البر الخالي، التي دامت سبع ليال وسبعة أيام كاملة، كللت، في الأخير، بالنجاح. حيث استطاعت أن تعثر على جثة ابنها الفقيد الشهيد، وأن تدفنه في مكان ملائم، اختارته له بنفسها.

وكما ذهبت راكبة مع بداية النهار، فقد عادت راكبة أيضا ولكن مع بداية الليل. وكما رآها إمام الدشرة ذاهبة، فبسمل وحوقل، وهو يكمل وضوء الصباح. فهو الذي رآها عائدة، فعوذ وحوقل، وهو يكمل وضوء العشاء.

لقد كان التعب يبدو عليها وهي راكبة، مثلما يبدو على الحمار الذي كان يحملها. لقد كانت رحلتهما شاقة، ولكنها كانت عظيمة.

وفي تلك الليلة، لم تستطع النوم. فقد ظل شريط الأحداث يلاحقها، وظلت صورة ابنها ماثلة أمامها. كانت المغارة معزولة، ومظللة، لا تلحقها الشمس بأشعتها طوال اليوم. تتشابك الأعشاب البرية على فوهتها، فتحجبها عن الأعين. وكان جسمه النحيف الذي نزف كل ما فيه من دم، ملقى على الأرض. وكانت ملامح وجهه تدل على المعاناة التي لحقته، والألم الذي ظل يمزقه، إلى آخر لحظة من حياته.

يتقطع الشريط بين حين وحين، ثم تعود الصورة من جديد. كانت صورة مؤلمة، ولكنها كانت جميلة. لقد مات وهو يعانق أعز شيء لديه، بعد أن أعطى أثمن شيء لديه. روحا فارقت، ودما خضب هذه التربة، وروى عطشها.

ثم تمتد يدها لتتحسس صورة صغيرة، تنام في اطمئنان بين ثدييها. إنها هنا. وستظل هنا، إلى أن يحين الحين. إنها شيء عزيز من شخص لا نستطيع أن نقول عنه عزيزا فقط. فتلك كلمة لا تفي بالغرض في مثل هذه الحالات.

تخرج الصورة، فتنظر إليها مليا، ثم تضمها إلى صدرها، فتشعر بالراحة والاطمئنان. وتحضر صورته الأخرى، وهو يعانق بندقيته، ويشدها إلى صدره بكلتا يديه. تكبر الصورة، ثم تكبر، إلى أن يختفي معها كل ما هو موجود.

ولما كان اليوم التالي، حضر أهل الدشرة من النساء والرجال، لكي يقدموا تعازيهم لزهو البال، ولابنتها أم السعد. فقد اتضح الأمر هذه المرة، ولم يعد بهي الطلعة فقيدا، بل صار في عداد الشهداء المعتز بهم. وقد وجب تقديم التعازي.

وكذلك ظل باب المنزل مشرعا. ومن الناس من هو داخل، ومنهم من هو خارج، إلى أن قربت الشمس من المغيب. وحينها، تمكنت زهو البال من توديع آخر المعزين، والخروج أمام المنزل، لتستنشق شيئا من نسمات المساء، وربما لرؤية الغروب.

أما زوج ابنتها، فقد كان له شرف تقبل التعازي من رجال الدشرة، وأهل دوار العرش قاطبة، الذين استقبل بعضهم في الطريق أو في المسجد أثناء صلاة المغرب. وكان أول المعزين في المسجد، هو إمام الدشرة، الذي أطال معه الحديث، فدعا للشهيد بالخلود في الجنة، مع الشهداء والصديقين، وتمنى للأم والأهل كل الخير، وحثهم من خلاله، على الصبر.

أما الحمار الصغير، فإن تعب الرحلة بأيامها ولياليها، ونبل المهمة التي قام بها، لم يشفعا له لدى الأطفال، الذين لم يقدروا كل ما قام به. ولذلك كان الصراع معهم منذ الوهلة الأولى، التي بدا لهم فيها بعد عودته من رحلة، عدها الأطفال من الرحلات الطويلة جدا. وعدوا غيبته عن الدشرة، شيئا خارقا. ولذلك كان اهتمامهم به كبيرا إلا أنه كان اهتماما مزعجا، ومؤذيا. فلم يكن ينجو من ملاحقاهم له، إلا حين يكون في عمل ما، مع صاحبه. أو حين يكون بالقرب من زهو البال، التي يبدو أنها أصبحت تشفق عليه، وتقدر الجهد الذي بذله، والعمل الذي قام به، أثناء رحلته معها إلى البر الخالي.

وفجأة، بدأت الأمور تتغير في تلك الدشرة. وكان أول تلك المتغيرات، أن أضيف إلى اسم زهو البال، لفظ مميز، يحمل صفة لم تكن تلحق باسمها أبدا إنه لفظ (الشيخة). وبذلك صارت تعرف باسم (الشيخة زهو البال). وهي نفسها لم تعرف من ألحق باسمها هذه الصفة. ولكنها تقبلتها، و لم تعلق بشيء. فهي الآن شيخة بالفعل. ومع ذلك فقد خلت إلى نفسها، ونظرت صورها في المـــرآة،

لترى صورة لامرأة غزتها الشيخوخة بسرعة، وبدأت تحاصرها من كل ناحية، في حركاتها، وفي تجاعيد وجهها، وفي بياض جزء من شعر رأسها. فلتكن شيخة إذا، ومنذ الآن. فهذه الصفة لم تلحق باسمها اعتباطا، وإنما هي حقيقة يجب الاعتراف بها، وقبولها. لأنها من سنن هذه الحياة.

أما المتغير الثاني، والذي حدث بسرعة أيضا، فهو ذلك النوع الجديد من العلاقات التي صارت تربطها بالآخرين. فقد استطاعت الشيخة، بعد أن عادت من رحلتها إلى البر الخالي، أن تستقطب الأنظار والقلوب. وأن تشد إليها العقول. حيث أصبحت محور الاهتمام في المناسبات، وفي غير المناسبات. فمن الناس من كان يتعاطف معها، أو يشفق عليها. ومنهم من أصبح يحترمها، ويقدر فيها شجاعتها، وصبرها، وحكمتها، وتبصرها بالأمور.

فهي تعالج المرضى، وتعطي النصائح الصحية للنساء والأطفال، في كل وقت، وفي كل مكان. تذهب إلى المريض في مترله، بعيدا كان أو قريبا. في الليل أو في النهار. ثم تبقى على اتصال به. بالسؤال عنه، أو بزيارته، إلى أن يخرج من محنته. لا تكل، ولا تمل. ولا تطلب مقابلا عن ذلك أبدا.

وهي عارفة بأسرار الأعشاب والنباتات. تحفظ أسماءها، وتعرف مواقع وجودها، وفوائدها الطبية. فتجمع منها الكثير، وتجففها، ثم تحفظها في أكياس صغيرة، صنعتها من القماش، وطرزت على كل واحدة منها، اسم النبتة، بخط مغربي واضح وجميل. وقد ساعدتها ابنتها أم السعد، في تفصيلها وخياطتها، كما تساعدها أيضـــا،

في تجفيف الأعشاب وتنقيتها، وحفظها في أماكن ملائمة، بعد أن تقطع لأجلها، في بعض الأوقات، مسافات طويلة. أو تكلف من يحضرها لها من أماكن بعيدة. ومنها ما تزرعه بنفسها، في مربعات صغيرة، هيأها لها زوج ابنتها الذي أصبح يخصص لذلك جزءا من وقته، عند كل مساء. كزراعتها للحبة السوداء، وحب الرشاد، والحلبة، والمعدنوس، والنعناع، والكسبر، وغيرها.

وزيادة على ذلك كله، فهي بائعة متجولة. تحمل مبيعاتها إلى المشترين في منازلهم. فتختار منها ما خف حمله، وزاد نفعه، ووجد إقبالا عند المشترين، وأغلبهم من النساء. وهو ما جعلها تتحول إلى عارفة بأحوال الناس، ومطلعة على كثير من شؤونهم، وحافظة لبعض أسرارهم، التي تتكشف عليها. ثم هي صاحبة مشورة ورأي عند النساء. وبخاصة في الأمور المهمة، التي يصعب البت فيها. ومساعدة على حل المشاكل بين النساء، وبين الأزواج. حاضرة في حل الخصومات، ومسوية للخلافات. ناصحة لمن تريد الزواج، وقابلة لمن جاءها المخاض، وخبيرة بتجهيز الأموات، وتحضير الجنازات، وتنظيم الأفراح والحفلات، وتحضير الأطعمة، ووضع المقادير بطرق اقتصادية دقيقة. وناصحة باستغلال ما هو موجود، حتى في المزارات وعند قبور الأولياء والصالحين، لصالح الفقراء وذوي الحاجات. ومحافظة على العادات والتقاليد، ساهرة على تطبيقها، ومشجعة على ضرورة احترامها. عارفة بما يجب، وما لا يجب. وهي أحسن من يجيب على أسئلة النسوة في: ماذا؟ وكيف؟ وكم؟ ومتى؟ وأين؟

وبدأ شأن المرأة يعلو شيئا فشيئا، عند نساء الدشرة ثم انتقل إلى الأخريات، اللواتي كن يسمعن عنها ولا يعرفنها، أو اللاتي وصلتهن لتبيعهن ما تحتجنه من أغراض نسائية؛ من كحل، أو سواك أو عطور، أو مناديل شامية تجملن بها رؤوسهن.

ومن علاقة البيع والشراء، إلى علاقات أخرى أهم، هي الرأي، والمشورة في القضايا النسائية الخاصة، التي أصبحت فيها أكبر مدبرة، وأهم مشيرة وناصحة.

ثم كان لها أيضا، شأن عند الرجال. فقد وجدوا فيها العارفة بالأمور، ووجدوا لديها الرأي الصائب، في الشؤون العامة والخاصة. وأصبح كل من تقلقه فكرة، أو تعترضه مشكلة، أو تستعصي عليه قضية ما، يلجأ إليها، ويأخذ منها النصيحة والرأي. فهي تعطيهما لطالبهما حيث وجدت؛ في الطريق ماشية، أو جالسة تحت شجرة الدردار بالقرب من مترل ابنتها أم السعد. أو حتى وهي تقصد المنازل لتبيع ما تحتاجه النسوة من أغراض. وفي الأفراح مهنئة، وفي الأتراح مواسية، أو معزية. تسأل فتجيب، وتستشار فتشير، لا تبخل على أحد، ولا تنفر من أحد.

إلا أن ذلك كله، كان على حساب مكانة رجل، كان يعتبر سيد الدشرة، وقطب الدوار. إنه صاحب الشأن المرفوع، والرأي المسموع، إمامهم، ومعلم أطفالهم، الذي كان يصلح بين الناس إذا تخاصموا، ويحكم بينهم إذا اختلفوا، ويمنحهم المشورة إذا استشاروا ويختن أطفالهم، ويعقد نكاح المتزوجين منهم والمتزوجات. ويكتب التمائم للمرضى، وعاثري الحظ في الحياة. ويفطم الرضع، ويقرب بين القلوب، ويزرع المحبة والمودة بين العشاق والمحبين.

إنها الموازين قد بدأت تختل في هذه الدشرة، وفي المنطقة كلها، بعد مجيء هذه المرأة. وبخاصة بعد عودتها من رحلتها إلى البر الخالي، بحثا عن ابنها الفقيد الشهيد، بهي الطلعة. ولذا، يجب أن يوضع حد لهذه المهازل، التي بدأت تسببها هذه المرأة، بتصرفاتها المتبجحة، التي تجاوزت بها كل الحدود.

هكذا فكر إمام الدشرة، ومعلم أطفالها. وهذا ما قرره في سريرته، وعزم على تحقيقه، بعد أن أحس بأن الأمور قد بدأت تفلت من يديه. وأن مستقبله قد صار على حـــافة الهاوية. وسيفقد كل شيء، إذا لم يتصرف بحكمة وصرامة، لكي يوقف هذه المرأة المتعجرفة عند حدها، ويعيد الأمور إلى نصابها.

## -11-

كان الإمام قد بدأ يشعر بالقلق، نحو الشيخة زهو البال، وما بدأت تحققه من تقدير واحترام عند الناس. ثم تحول ذلك القلق إلى انزعاج. فبدا شديد النفور من الناس، وبخاصة من أولئك الذين استطاعت الشيخة أن تستميلهم. كما أصبح دائم العبوس، سريع الغضب، لا يحتمل المناقشات، وبخاصة منها تلك التي يكون فيها ما يشير، عن قصد، أو عن غير قصد، إلى الشيخة زهو البال. حتى وإن كان في غير صالحها.

لذلك بدأ الإمام يشغل فكره، ويخطط لوضع حد لهيمنة الشيخة على قلوب الناس وعقولهم. فكان يبحث عن الأسباب والمسببات ويقلب الأمور على كل الأوجه، ويتصل ببعض من يثق بهم، ويرى أن قلوبهم مازالت تميل إليه. محاولا أن يفهم منهم حقيقة الأمر، وما يجب، بعد ذلك، فعله. ثم راح يحبك الدسائس، وينشر الشكوك، محاولا الحط من قيمة جهودها العلاجية، والاستشارية، وآرائها في كثير من القضايا الأخرى. إلا أنه لم يستطع أن يحقق أي نجاح في ما كان يصبو إليه. ولذلك، صار غضبه يزداد كل يوم، فينقلب في الكتاب على الأطفال يضربهم، ويزيد في عقوباتهم. وفي البيت ينقلب على أهل بيته، ضربا وصراخا، ونفورا من المترل،

وامتناعا عن الأكل في بعض الأوقات، حتى ظنت به زوجته الظنون إذ اعتقدت أنه قد أحب امرأة أخرى غيرها، فراحت تتجسس عليه، وتحاول أن تجد تفسيرا لكل حركاته وسكناته. ولما لم تصل إلى نتيجة تؤكد شكوكها، هدأت، وتوقفت عن تجسسها عليه.

أما في الخارج، مع الناس، فقد كان غضبه باديا في كلامه وفي خطبه، ودروسه، كل جمعة. ومن ذلك، كثرة أحاديثه في شؤون النساء، والتحذير منهن، لأن كيدهن عظيم. وعندما وجد أن تحذيراته لم تجد نفعا، انقلب إلى اللوم، ثم إلى التوبيخ، بطرق غير مباشرة. كما حاول أن يستغل نفوذه وعلاقاته الشخصية، فوجد أنهما لا ينفعان أيضا.

ولقد عمل البعض على إيصال كلام الإمام، الملمح والمصرح، ومواقفه المفضوحة، إلى الشيخة زهو البال. ومنهم من كان يفعل ذلك بسبب، ومنهم من كان يفعله بغير سبب. فكانت تسمع كل شيء، ولا تقول أي شيء. وكأن الأمر لا يهمها، لا من قريب، ولا من بعيد. إلا أنها كانت قد عقدت العزم على السير قدما في طريقها. فهي التي لا ترجع إذا سارت، ولا تتراجع إذا قررت. وهي لن تجد أفضل من هذه الظروف المواتية للفصل بين ماضيها وحاضرها. إنها غير آبهة لما يقوله إمام الدشرة، لاقتناعها بأنها لم تؤذ أحدا، وليس في نيتها ذلك أبدا. كما أنها لا تفعل، ولن تفعل إلا ما تراه صحيحا، ينفع الناس ولا يضرهم. وهو ما لم يستطع الإمام فعله حتى الآن. وقد لا يستطيع فعله أبدا.

وكما كانت الشيخة من قبل، كثيرة التأمل في الكون، فهي الآن مازالت كذلك، وربما أكثر من ذلك. وقد أصبحت أيضا، صاحبة حكمة، ورأي سديد، يتقوى يوما بعد يوم، ويزيد في شعبيتها واحترام الناس لها، وحقد الإمام عليها، وعمله المستحيل لاستعادة مكانته المفقودة بين الناس.

وزيادة على ذلك كله، فهي الآن صاحبة اهتمام كبير بالنباتات؛ زرعا، وجمعا، وتجريبا. حتى أنها استطاعت أن تهجن نوعا من النبات البري، من فصيلة البصليات. إذ جعلته أكبر حجما، وأطول ساقا. وتغير لون زهره من الأبيض إلى البنفسجي. فزاد من جماله، وأصبح يعطي رائحة أزكى. حتى أنها كانت تزرع منه الكثير بالقرب من قبر ابنها الشهيد، بهي الطلعة. وقد أعجب به الناس وأطلقوا عليه اسما جديدا، فصار يسمى (حشيشة زهو البال)، أو نوارة زهو البال. ومنهم من راح يقلدها في زرعه عند القبور، أو في الحدائق المترلية.

وقد ظل اهتمامها بالنباتات يزداد، يوما بعد يوم، لما وجدت فيه من عظيم الفوائد والمنافع. فهي تعالج بها الناس من أمراض عديدة؛ كالوهن، والحمى، والتسمم، وأوجاع المفاصل، وأمراض الجلد، والحروق، والسعال، والزكام، والاكتئاب، وغيرها من الأمراض والعلل الأخرى. حتى تلك التي عجز عن معالجتها إمام الدشرة بتمائمه التي ينصح دائما، بتعليقها في العنق، أو تحت الإبط الأيمن. أو بتعازيمه، وقراءاته، وبصاقه في بعض المآكل والمشارب، التي ينصح مرضاه ومريديه بتناولها.

وهكذا وقع الفصل الذي كانت تنشده، وأصبحت المرأة على غير ما كانت عليه. فهي بائعة متجولة، وصاحبة رأي ومشورة، وعارفة بما يعالج الأمراض والعلل. وهي مع ذلك كله، صاحبة إرادة لا تقهر. وامرأة صالحة في دينها ودنياها. لا تنام الليل إلا بعد تأدية واجباتها الدنيوية والدينية، وقراءة ما تيسر من القرآن.

ولأن مسؤولياتها أصبحت تزداد باستمرار، اجتماعيا وتجاريا، وطبيا. فقد كثرت رحلاتها وأسفارها إلى مختلف الجهات. وقد تطول تلك الرحلات، أو تقصر. وهي أيام أو أسابيع. وذلك حسب حاجتها، وحاجة الناس إليها. فحياة الناس أفراح وأتراح. ولذلك، فإنها لا تعرف التوقف، ولا تعرف الانتظام.

فزيادة على ما كانت تحمله من أغراض تبيعها، فإنها صارت تحمل معها أيضا صندوقها العجيب، الذي صنعه لها أحد الفلاحين البسطاء، الذي أتقن أيضا صنع النجارة، فأتقنه صنعا، وأجاد زخرفته بألوان فاقعة، وزينه بأزهار زاهية وذلك بعد أن نجحت هي في إنقاذ حياة ابنه الوحيد، من مرض مهلك، ألزمه الفراش أشهرا. فعلق أهله في عنقه وتحت إبطيه الأيمن والأيسر سبع تمائم كاملة، لم تنفعه. حتى جاءت زهو البال، التي فهمت علته، واستطاعت أن تنقذه من هلاكه، وأن تعيد الفرحة إلى أهله.

وقد حوى ذلك الصندوق، العديد من النباتات، والحشائش المجففة، والعقاقير الطبية المحضرة.

وهي مع ذلك كله، لا تأخذ من الناس مقابلا، مهما كان نوعه، أو قيمته عن علاجها. وهو ما كان يدخل البهجة في قلوب الناس،

ويزيد في احترامهم لها واطمئنانهم إليها، وثقتهم فيها. معتقدين فيها البركة والخير، لأنها لا تعالج لغرض الكسب، وإنما لأداء واجب إنساني. ومن يفعل ذلك، فإنه يصدق، ومن يصدق، فإنه ينفع. ومن ينفع، فإنه يستحق التقدير والاحترام والمحبة.

وفي هذه المرحلة المتميزة من حياة الشيخة زهو البال، التي زاد فيها احترام الناس لها، وحاجتهم إليها. وازدادت شهرتها بينهم، ووصلت إلى من كان لا يعرفها. في هذه المرحلة بالذات، كانت زهو البال تثري تجاربها الطبية، بين الحين والحين، وتدعم اكتشافاتها باكتشافات أخرى. لا تكل، ولا تمل. بل كانت تشعر دائما بدافع كبير ورغبة جامحة في البحث، والاكتشاف، والتجريب. وهي لذلك ترحل باستمرار، وتعود محملة بمختلف أنواع النباتات والحشائش، تحضرها من أماكن بعيدة. وتزيد في زراعة ما تتمكن من زراعته، بمساعدة زوج ابنتها، الذي كان يبدي لها حبا كبيرا، ويوفر لها كثيرا مما تطلبه. ويسهر باستمرار على صيانة مشتلتها التي راحت تتوسع كل مرة. ويعتني بها أثناء غيابها.

ومن الاكتشافات التي توصلت إليها، وجربتها في هذه المرحلة، وتأكد لها مفعولها ونفعها، ووجدت إقبالا كبيرا لدى المتطببين عندها، مستخلص البصل الذي كانت تعالج به الحمى، والالتهابات الباطنية. كأمراض الكبد، والكلى، وتضميد الجروح، والدمامل. وتنصح النسوة باستعماله لأزواجهن، لما له من آثار حميدة على إثارة القوة الجنسية. وكذا حليب الدابة، وفوائده في علاج أمراض المعدة، والسعال الديكي عند الأطفال. والزعتر، وفوائده في أمرض الأنف والحنجرة، وإزالة الوهن، وجمال الشعر. وشراب النعناع. ونقيع الريحان.

وكلما ازداد نشاطها، كلما ازداد غضب الإمام. وقد تعاطفت معه أقلية من أتباعه، الذين مازالوا يتقربون إليه، ويعتقدون فيه الخير والبركة. فقد سدت أمامه زهو البال بابا هاما للاسترزاق والشهرة، والسيطرة أيضا. و لم يعد يلجأ إليه، إلا أقلية من الناس.

وإذا كان قد قرر من قبل مواجهتها، فإنه بقي هو وقراره يراوحان مكانهما. فكان كل مرة يفكر في المواجهة، والتصدي لهذه المرأة، التي أفسدت عليه برامجه وخططه. وبذلك نغصت حياته، وأفقدته الكثير مما كان يتمتع به من جاه، واحترام أمام الناس. وأدخلته في دوامة من الحيرة الدائمة.

## -12-

كانت زهو البال كبيرة السن، ثم أصبحت كبيرة في كل شيء. وقد كبر شأنها أكثر في الفترة الأخيرة. ودخلت بذلك القلوب، قبل أن تدخل البيوت. وكسبت ود الكبار، ثم من بعدهم ود الصغار. وبخاصة في تلك الدشرة، حيث تقيم مع ابنتها أم السعد. ثم خارج الدشرة، في المناطق التي وصلتها رجلاها، بعد أن صارت الأسفار والرحلات مهنتها، منذ رحلتها الأولى إلى منطقة البر الخالي، بحثا عن فقيدها بهي الطلعة.

لقد أصبحت المرأة نافعة للجميع، وفي كثير من الشؤون. فالكبار يقصدونها طالبين إسداء الرأي، وطالبين المشورة، والتطبيب والتوليد. أما الصغار فإنهم يجتمعون حولها لسماع ما تسرده على أسماعهم من قصص جميلة، وحكايات طريفة ومشوقة، كقصة حديدوان، وقصة لونجة، وبن عكرك، وغيرها.

ولأنها المتعلمة الوحيدة من النساء في تلك المنطقة كلها، وصاحبة مفاجآت أبهرت الناس كلهم، وعلى رأسهم إمام الدشرة الذي لم يعد يهنأ له بال، منذ حلت، واستقرت، وكسبت ود الجميع. فقد قررت أن تضيف إلى نشاطاتها المتعددة، نشاطا آخر، هو تعليم البنات والنساء. ورغم أنها بدأت ذلك من قبل، وبطرق غير مباشرة،

فقد رأت، في الأخير، أن يكون ذلك واحدا من الأعمال التي يجب أن تضطلع بها، وتعطيها من وقتها ما تستطيع. وهكذا كانت تجمع إليها بين حين وآخر، عددا من البنات، تحت شجرة الدردار، وتعلمهن القراءة والكتابة، وتحفظهن شيئا مما تحفظه.

وإذا كان الآباء والأمهات لم يقولوا شيئا عن ذلك، أو لعلهم استحسنوه، رغم عدم تعودهم عليه. فإن الإمام قد جن جنونه، عندما أخبرته ابنته الصغيرة، أنها تعلمت بعض الحروف، قراءة وكتابة، عن الشيخة زهو البال. التي قالت عنها أيضا، إنها تعرف كثيرا من القصص الجميلة. وإنها تجلس في حلقة من البنات، مثل حلقة الأطفال التي يجلس فيها أبوها الإمام. إلا أنها لا تستعمل عصى كتلك العصا الزيتونية الطويلة التي يستعملها أبوها، ليلسع بها أجساد الأطفال من بعيد، كلما لاحظ لدى البعض منهم تغافلا، أو تكاسلا في القراءة والحفظ.

راح الإمام يسأل ابنته أسئلة مختلفة، عن زهو البال، وعن حلقتها مع النساء والبنات. وعن ما تقوله لهن، وما يتعلمنه منها، وعن طبيعة تلك الحكايات، والقصص التي تسردها على مسامعهن. ثم نهرها عن حضور تلك الحلقات. والتفت إلى زوجته يوصيها بعدم ترك الصغيرة لعبة بين يدي عجوز ذهب عقلها، فصارت تعاند الرجال وتدعي الفهم في أشياء لا علاقة لها بها، ولا هي من اختصاصها. ثم أسند ظهره إلى الجدار وراءه حيث يجلس، وراح يحدث نفسه:

– إن مثل هذا لم يحدث من قبل أبدا. ولعله نذير شؤم لهذه الدشرة ولأهلها كلهم، أو لمن يتبع هذه المرأة المدعية.

فمتى كانت المرأة تعلم أو تتعلم؟ إنها علامة من علامات النهاية. لقد بلغ السيل الزبى، كما يقول المثل ولم يتحرك أحد، ولم يقل الناس شيئا. ومعنى هذا أنهم يتآمرون علي وعلى أنفسهم. يجب أن توقف هذه المهازل التي تقوم بها هذه المرأة. ويجب أن يعرف الناس خطر ما تقوم به. إن تعليم بناتهن مضر، لأنه سيقودهن إلى الرذيلة، بدءا بكتابة رسائل الغرام، وربما انتهاء بأشياء أخرى، هي أخطر من ذلك بكثير، وأشد إفسادا للأخلاق، والآداب العامة.

وعندما كان الإمام في باحة منزله متكئا، يفكر في كل ذلك وفي ما هو أخطر منه. كانت زهو البال تتفيأ ظل الدردارة، وقد اتكأت إلى جذعها، وراحت تتابع نشاط البنات، اللواتي تحلقن أمامها ومنهن من تحاول كتابة شيء، ومنهن من تحاول فك حروف مكتوبة. ونشوة الفرح تغمرها كلما لاحظت نجاح إحداهن في قراءة شيء ما، أو كتابته بطريقة صحيحة. فتثني عليها، وتشجعها. ثم تروح ترقب أثر ذلك على وجهها البريء، وقد غمرته البهجة والسرور.

لقد بدأت الشيخة زهو البال مشروعها الجديد، لتعليم بنات الدشرة كتجربة بسيطة، مع واحدة، ثم راح العدد يزداد، إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن. إذ أصبحت تجمع إليها في جلستها الخاصة، عددا لابأس به من البنات اللواتي يرغبن في التعلم. يأتين، ويجلسن إليها، وقد شكلن حلقة جميلة، كلها انتباه، وآذان صاغية لكل ما تقوله الشيخة. ورغم أن الآباء قد تحسسوا من الأمر في بدايته،

واعتبروه تلهية للبنات عن بعض الأشغال التي يمكنهن أن يقمن بها كمساعدتهن لأمهاتهن في أشغال المترل. ولكنها زهو البال. وأعمالها لا يجب أن توصف بالتلهية. فقد راحت في البداية ترغب البنات، ثم عملت على إقناع الأمهات، إلى أن تحقق لها ما تريد. وهي الآن مقتنعة بفكرتها، جادة في عملها لا تغيب عنه، إلا حين تكون في سفرة من أسفارها. أو حين يطرأ طارئ يقتضي غيابها، لضرورة تطبيب، أو توليد، أو حضور جلسة خاصة، للبث في أمر من الأمور التي تعرض عليها، لإبداء رأي، أو إسداء نصيحة.

ومن الناحية الأخرى، فقد كان غضب الإمام يشتد كل يوم، وحيرته تزداد كل لحظة. لأنه كان يرى في كل ما تقوم به زهو البال منافسة. بل تحديا له، وضربا في الصميم، للقضاء عليه. وذلك من خلال القضاء على سمعته، ومكانته، اللتين عمل مدة طويلة على بناء صرحهما. وهو ما يفرض عليه الآن، ألا يبقى مكتوف اليدين، لا يحرك ساكنا، متفرجا على مهزلة تقوم بها امرأة لم تجد من يقف في وجهها. ولكن ماذا عليه أن يفعل، بعد كل ما فعل. وبعد أن باءت كل محاولاته بالفشل؟ إنه يعمل بكل الوسائل لإفشال مشروعها الجديد لتعليم البنات. فقد لجأ مباشرة إلى الأولياء ينبههم، ثم يحذرهم من سوء العاقبة، ومن النتائج التي تترتب عن ذلك. ولما لم يجد كلامه صدى لديهم، أفتى في المسجد، وأمام الملأ، بتحريم عمل المرأة في كل المجالات التي تخرج عن الشؤون المترلية، والعناية بطلبات زوجها، وتربية أولادها. لأن المرأة، حسب رأيه، ناقصة عقل ودين. ولذلك، لا يجب السماح لهذه المرأة بأن تتلاعب بعقول بنات الناس. وأن ما تقوم به، ما هو في الحقيقة إلا تلاعب بكلام الله. وهو ما لا يرضي الله.

ولم يكتف الإمام بذلك، بل أوعز إلى زوجته أيضا، أن تفعل شيئا إلى جانبه. إذ الأمر أصبح أخطر مما كان يتصوره. فلم يعد لعبة، أو منافسة، أو حتى تحديا. وإنما صار تهديدا له في عمله ومكانته، وكل نشاط يقوم به. فمن المشورة إلى التطبيب، ثم إلى التعليم. وقد تصل في يوم ما إلى الإفتاء. وربما تؤم الناس في الصلاة. إن هذه المرأة، هي الخطر نفسه. ثم إن هؤلاء الناس لم ينتبهوا إلى ذلك بعد، ولا يريدون أن يحركون ساكنا. بل أغلبهم، بما في ذلك نساؤهم، وأبناؤهم، يسيرون خانعين خاضعين وراءها، سير البهائم المقودة، إلى مصائرها المجهولة.

وكذلك تحرك الإمام من ناحية، وتحركت زوجته من ناحية أخرى. وانتشر خبر الفتوى في الدشرة، ثم في المنطقة كلها. ولكن رد الفعل كان ضعيفا جدا فرغم الكلمات النارية التي كان يصدرها الإمام لترهيب الناس، وتخويفهم من عاقبة ما هم ساكتون عنه، وما ينتظر الفاعل والمفعول معه يوم الحساب، فإن الناس تساءلوا في البداية، ثم أخذهم شيء من الحيرة والتذبذب، واختلفت مواقفهم. ولكنهم عادوا بسرعة إلى صف الشيخة زهو البال، وكأن شيئا لم يكن.

وعندما كان الإمام ينشط بكثافة، في حملته الشرسة ضدها، مستعينا في ذلك بزوجته التي تحركت في اتجاه النسوة، والفتيات الصغيرات، تهدد وتتوعد الفاعلات بعقاب النار يوم القيامة، وحينها كانت زهو البال تظهر اللامبالاة، وكأن شيئا لم يحدث. فهي تسافر، وتعالج الناس، وتبيع بضاعتها، وتسهر على مشتلتها،

وتعلم القراءة والكتابة لمن حضرت من بنات الدشرة. وهي بذلك تبدي صبرا وصمودا، أمام هذه الهجمة الشرسة للإمام، التي أظهرت فيه رجلا فقد السيطرة على عقله، و لم يعد يدري ما يفعله. بينما ظهرت زهو البال امرأة واسعة الصدر، هادئة الطبع، شديدة التأني، حكيمة في رأيها، مثابرة في عملها تعمل الكثير، ولا تقول إلا القليل.

ومن الناس من تضامن معها أكثر في هذه المرة. وإذا كانوا لم يقولوا شيئا فإنهم أيضا لم يفعلوا شيئا. وأين يجد الناس امرأة، أوحتى رجلا ينفعهم في حياتهم، مثلما تنفعهم زهو البال؟ فما تقوم به من خدمات جليلة، لا يمكن أن يقارن بما يقوم به الإمام. وقد تجرأ أحدهم، وأعلن أمام الناس رأيه في ذلك. فقال بعد مناقشة فاترة، ومحتشمة:

– إنكم تستطيعون أن تعيشوا بدون إمام، ولكنكم لا تستطيعون أن تعيشوا بعد الآن، بدون هذه المرأة. لقد قدمت الكثير لنا ولغيرنا. ودفعت الكثير وحدها. فهي التي فقدت ابنها بهي الطلعة، وهي التي غامرت وحدها إلى البر الخالي، في رحلة لا يقوم بها حتى الرجال. وهي التي تسعى كل يوم لكسب رزقها. وهي تعالجكم، وتعالج أبناءكم، ونساءكم. وتحضر أفراحكم، وأتراحكم، وتشارككم الحلو والمر. ولا تطلب منكم عن كل ذلك جزاء، ولا شكرا.

وفي المساء كان هذا الموقف المعلن، قد وصل الإمام بكل تفاصيله، وربما مع شيء من الإضافات، التي يحرص ناقلوا مثل هذه الأخبار على زيادتها. إلا أن الإمام سمع ما نقل إليه بكل اهتمام و لم يعلق. ولكنه فكر في شيء آخر، لم يفكر فيه من قبل.

إنها الهزيمة. فلأول مرة يشعر بأنه يهزم. والأسوأ من ذلك كله، أن تهزمه امرأة. ويتحالف معها الحفاة العراة، الذين جهلوا أمور الدين والدنيا معا وراحوا يتطاولون على سادتهم، وعلى علمائهم.

لقد اكتفى الإمام بأن نظر إلى محدثه، نظرة انكسار وهزيمة لم يذق مرارتها من قبل. ثم قام، وقد أظلمت الدنيا بين عينيه. وانسحب عائدا إلى منزله، وقد امتلأ قلبه كمدا، ولم يعد يحتمل سماع أي شيء. كما لم يعد قادرا على قول أي شيء. ولذلك فضل الانسحاب في صمت.

أما زهو البال، فقد أمضت عدة أيام، وهي تفكر في رحلتها القادمة التي قررت لها، أن تكون الأطول في حياتها. فهي لن تعود من هذه الرحلة إلا بعد أن تهدأ الأمور، وتطمئن النفوس، ويسكت غضب الإمام، وتتضح مواقف بعض الناس، بعد الزوبعة التي أثارها مؤخرا، والتي أراد من خلالها تأليب الناس ضدها، ولم ينجح.

إن زهو البال تحب الجميع، ولا تحقد على أحد، ولا تريد لهؤلاء الناس إلا الخير، والصلاح في حياتهم. ولكن ذنبها الوحيد، أنها ترى ذلك من حيث لا يراه غيرها. وتحسب الأمور على غير ما يحسب الناس، وتقدرها بغير ما يقدرون. وهو ما يسبب إزعاجا للبعض، وعلى رأسهم الإمام. ولذلك، وجب الرحيل هذه المرة، ولمدة أطول.

# -13-

لما كثرت رحلات زهو البال التجارية والطبية، كثرت أيضا زياراتها لضريح ابنها الشهيد بهي الطلعة. حيث صارت تزور قبره باستمرار، وتجلس قبالته وتحدثه في صمت، وتتأمله، وتتأمل كل ما حوله. وتبعد عنه كل ما حملته الرياح من يابس الحشائش، والنباتات، وأوراق الأشجار المتناثرة، وكل ما يشوه تربته. وتعتني ببعض الأزهار التي فرضت نفسها هناك، أو التي زرعتها بنفسها، فأعطت منظرا جميلا. ومن خلال كل ذلك، تتأمل أشياء أخرى، من ماضيها، وحاضرها. وقد زاد إقبال الناس على خدماتها الاجتماعية، والطبية. ومع أن ذلك كان يبهجها ويشرح صدرها، إلا أنها بدأت تشعر بالتعب. ولذلك كانت تلجأ إلى النوم والاسترخاء، بعد كل رحلة تقوم بها، لكي تستريح، ولكي تهيئ نفسها للرحلة القادمة. إلا أن ذلك وحده، لم يكن كافيا لتحمل مشاق الرحلات والأسفار، وحمل الأغراض. فقررت أن تمتلك حمارا، أو دابة، أو أي مركوب يحملها ويحمل أغراضها.

صحيح أن هذه الفكرة ليست طارئة عليها. ولكنها لم تفكر فيها جيدا قبل الآن. فقد راقتها بعدما استعملت حمار زوج ابنتها أم السعد، أثناء رحلتها للبحث عن فقيدها بهي الطلعة، في البر الخالي.

حينها، لاحظت قدرة ذلك الحمار، رغم ضآلته، على تحمل الأعباء والمشاق، وعذاب الغربة، والصبر على الجوع، والتقشف في الأكل وسهولة قيادته، وامتطائه. فاطمأنت إليه، واستأنست به. ومنها بدأت تفكر في امتلاك حمار. وقد ظلت هذه الفكرة تراودها بين حين وحين، وبخاصة عندما تطول رحلتها، وتتعدد أسفارها، وتكثر محمولاتها وتزيد عن جهدها الذي بدأ يضعف تحت وطأة الشيخوخة. ثم راحت الفكرة تنضج، وتتبلور أكثر، إلى أن اقتنعت في النهاية بضرورة امتلاك حمار يسهل لها تنقلها، ويخفف عنها ثقل ما تحمله من أشياء تبيعها، وأخرى تعالج بها. ويحملها حين تطول الرحلة، ويصعب السير، أو يتعبها المشي.

إلا أن اكتشافها الأخير لفوائد حليب الدابة، من الناحية الطبية لعلاج بعض الأمراض، وبخاصة منها مرض السعال الديكي عند الأطفال دفعها إلى تفضيل امتلاك أتان، بدل الحمار. ذلك أن الحمار له نفع واحد، هو الحمل. أما الأتان، فإنها تفيد في الحمل أثناء الأسفار والرحلات، كما تفيد في العلاج بحليبها. ولعلها تكون أيضا، ألطف وآنس من الحمار.

ولكن زهو البال فكرت أيضا، وبجد، في ما سيترتب عن ذلك من بعض المشاكل التي ستعترضها مع شبان الدشرة ومراهقيها، الذين سيختطفون أتانها في بعض الأوقات، لقضاء حاجتهم البشرية. إلا أنه يمكن التغاضي عن ذلك، بل قل يجب، لأنه لا يوجد حل غيره وكما يقولون، للضرورة أحكام. وتلك ضرورة من الضرورات، التي قد لا تسلم منها أية أنثى، تعيش بين مراهقين، يعانون قحطا جنسيا.

فقد رأت بأم عينيها، مثلما يرى كل الناس، اغتصابات عديدة تعرضت لها أتن، ونعاج، وبغال. إلا أن ذلك لا يغير من الأمر شيئا. فهو عمل يحقق للإنسان رغبة، ولا يترك في الحيوان أضرارا، وحتى إذا كان مرفوضا من الناحية الأخلاقية السائدة، فإنه شيء لا يمكن التحكم فيه، ولا يمكن حتى النهي عنه بصريح الكلام. فمجرد الكلام عنه، يعتبر من المحظورات. ولذلك يستحسن السكوت عنه في كل الحالات.

وفي المساء عرضت فكرتها الجديدة على ابنتها، وزوج ابنتها. وإذا كان زوج ابنتها قد أشار عليها باستعمال حماره، الذي رافقها في رحلتها الشهيرة إلى البر الخالي، فإن ابنتها أم السعد، لم تشأ أن تناقشها في ذلك، واكتفت بالصمت. إلا أن الصمت ليس دائما علامة الرضى. فقد أحست زهو البال بما تكتمه ابنتها، وفهمت صمتها.

لقد صمتت أم السعد، ولم تقل شيئا. وفي صمتها رفض مؤكد. ولكنها تعلم أنها لا تستطيع أن تعارض رغبة أمها. فهي إذا قررت شيئا فعلته. وما استشارتها في الحقيقة، إلا مجرد إعلام. ولذلك فضلت السكوت. وهي في الحقيقة، لا تريد من أمها، إلا أن تكون بجانبها. وأن تقضي بقية عمرها في استقرار، وأن تكف عن رحلاتها وأسفارها. لأن ذلك لا يجلب لها، في نهاية الأمر، إلا المتاعب والمشاق، في ما بقي من أيام حياتها.

إلا أنها كانت مصرة على فكرتها، عاقدة العزم على تنفيذها ولذلك لم تعبأ بصمت ابنتها، وعدم ردها عليها. فهي وإن لم تجد منها تشجيعا، فأنها لم تجد منها رفضا صريحا. كما أنها لم تول اهتماما كبيرا لاقتراح زوج ابنتها، الذي عرض عليها استعمال حماره، الذي قال بأنه يصلح لمثل هذه المهمات. وقد جربته بنفسها، عندما سافرت به إلى البر الخالي، بحثا عن فقيدها بهي الطلعة. وقد استطاع حمل جثمانه بكل فخر واعتزاز.

ولكن الأمر كان يخصها وحدها. فهي التي تتعب، وهي التي ترحل وتسافر، وهي التي تحس بما تحس به. وبالتالي، فهي تريد أن تستريح بعض الشيء، ولا يمكن أن يريحها من ذلك، ولا يخفف أتعابها، إلا امتلاك دابة.

إنها رحلاتها الخاصة، التي تعودتها، حتى أصبحت جزءا منها، وأساسا من أسس حياتها، بعد عودتها من رحلتها الناجحة إلى البر الخالي. وبعد اتخاذها قرار الفصل بين ماضيها وحاضرها. فقد وجدت في الرحيل تسلية، ومتعة، وفائدة أصبحت لها أوقاتها، وشروطها، وطقوسها التي تتبعها. ولذلك، فإنه لا يمكن التخلي عنها أبدا.

وكذلك كان قرارها في الأخير، أن تشتري أتانا، وأن تستمر في الرحيل، وأن تسافر كما تشاء، وإلى حيث تشاء، ومتى تشاء.

ولما كان يوم التسوق، ذهبت إلى السوق بنفسها. وبعد أن تجولت، واقتنت بعض الأغراض التي تعودت المتاجرة فيها، دخلت سوق البهائم لأول مرة في حياتها، وتجولت فيه متفحصة كل الحمير التي وجدتها هناك، إناثا وذكورا. وسألت عن أثمانها،

وعن أعمارها ولاحظت أشكالها، وألوانها، وقاماتها. وأخيرا وقع اختيارها على أتان شهباء اللون، نحيفة الجسم، متوسطة القامة والسن. أعجبتها واطمأنت إليها، فدفعت ثمنها، وحملت عليها أغراضها التي اشترتها ثم امتطتها وعادت.

وفي الطريق كانت تخب بأتانها، وهي تخلف من ورائها العائدين من راجلين وراكبين. بعضهم يكتفي بنظرة، وبعضهم يقول شيئا ما، يعلق به على ما رآه، ولم يتعود رؤيته.

## -14-

ولما علم أهل الدشرة بأن زهو البال قد اشترت أتانا، تساءلوا فيما بينهم، وتعجبوا لذلك. وكان أكثر المتعجبين إمامهم. فهو لا تعجبه دائما تصرفات هذه المرأة، كيفما كانت. وكلما جاءت بجديد في ذلك، كلما ازداد قلقه، وازداد تفكيره في أمرها.

وعند المساء، تجمع بعض الناس في الضاحية، منهم الكبار ومنهم الصغار، يتفرجون على ما جاءت به زهو البال. وقد بدأ بعضهم يستسيغ الأمر بعد أن قلبه على عدة أوجه، وأعطاه تأويلات مختلفة. وقد اختار بعضهم، وهو يعود إلى مترله، أن يمر بالقرب من الدردارة، حيث تجلس زهو البال عادة، وهي متكئة إلى جذع الشجرة الهرمة، تدير بين أصابعها سبحتها ذات الثلاثة والثلاثين حبة لكي يبارك ويهنئ. وقد فعل ذلك بعض الأطفال أيضا، الذين وجدوا في الأمر تسلية. فتمثل بعضهم الجد، وهو يمر ويهنئ مثل الكبار. بينما قالها بعض آخر بطريقة صبيانية استفزازية، وقد أخفى وجهه، أو مر مسرعا، أو متسترا خلف الجدار.

لقد عبر، في النهاية، كل منهم عن أحاسيسه نحو الحدث بطريقته الخاصة، وقال ما رآه يناسب الموقف.

أما هي، فقد بدت هادئة، لا تتوقف عن إدارة حبات سبحتها الصغيرة، وهي تتقبل التهاني، الجادة منها والساخرة. وترد على كل واحد بما تراه مناسبا، و لم تستثن أحدا. فحتى الأطفال كانت ترد عليهم، و لم يبد عليها أثر للانزعاج. فقد كانت تبدو على وجهها علامات الغبطة والاطمئنان. فهي مقتنعة كل الاقتناع بصواب رأيها في الأمر. ولا يهمها بعد ذلك، إن كان الناس قد مروا لتهنئتها عن قناعة، وحسن نية، أم لمجرد التسلية. أو حتى الاستهزاء.

لقد تعودت مثل هذه المواقف، وأصبحت، مع مرور الوقت تعرف كيف تتعامل معها، وتتصرف تجاهها. ذلك أن كل جديد عند هؤلاء الناس، لا يمر في بداية أمره بسلام. ولن يجد منهم قبولا، إلا بعد جهد، ومحاولات ترويض صعبة لعقولهم الـــرافضة، ونفوسهم الجامحة أبدا.

وفي الأيام التالية لذلك، بدت زهو البال منشغلة عن النـــاس، لا تخرج من المترل، ولا تلقى أحدا، إلا في الحالات الطارئة، التي تطلب فيها لرؤية مريض، أو حل مشكلة عاجلة. فقد أصبحت لا ترى كعادتها، وهي جالسة في أي من مكانيها المفضلين؛ أمام المترل، أو بجانبه تحت شجرة الدردار، إلا حين تكون الشمس قد أشرفت على المغيب. وكأنها تتعمد الخروج في ذلك الوقت، لتترقب الغروب في صورته الجميلة، وتودع الشمس في لحظاتها الأخيرة من كل يوم. أو لعل في الأمر سرا آخر لا يعرفه سواها.

إنها منشغلة هذه الأيام بصنع بردعة جميلة، ومريحة، لأتانها التي اشترتها منذ أيام فقط. وتهيئ محامل لأغراضها التجارية وأدواتها الطبية، التي لا تفارقها في كل رحلاتها.

لقد حرصت زهو البال على أن تصنع كل ما يتطلبه تجهيز أتانها بنفسها، تفصيلا وخياطة. وهي تقوم بذلك في سرية تامة. بحيث لا تسمح لأي كان بزيارتها، أو الدخول عليها وهي تعمل، إلا لابنتها أم السعد، التي تدخل عليها في بعض الأوقات، لتحمل إليها بعض ما تطلبه؛ أكلا، أو شربا، أو خبرا، أو طلبا من أحد يريد مقابلتها لأمر عاجل.

فقبل أن تبدأ مشروعها في تجهيز أتانها، كانت قد أحضرت كل ما يجب إحضاره. وجمعت كل ما يجب جمعه، وهيأت ما يجب أن يهيأ، كالإبر المختلفة الأشكال والأحجام، والخيط الملائم، وما يكفي من قطع القماش، والخيش، والجلد، والحلفاء. ثم انزوت في بيتها، تفصل وتخيط، من الصباح إلى المساء، لا تتوقف إلا لضرورة من الضرورات الملحة، أو طارئ من الطوارئ. وقد قررت أن تجعل في بردعة أتانها جيوبا سرية، لا يمكن اكتشافها، أو الوصول إليها، وإلى ما فيها من أي كان، ومهما كان. ولذلك أخذت من الوقت ما يكفيها، وعزلت نفسها عن الناس، وفصلت وأعادت التفصيل. وخاطت وأعادت الخياطة عدة مرات، حتى وصلت، في نهاية الأمر، إلى ما كانت تريده وتبتغيه.

وإذا كانت قد أخذت الكثير من الوقت، فإنها سمحت بذلك لأتانها أن تأخذ من الراحة ما يكفيها، وتسترد صحتها ونشاطها أكثر.

استعدادا للرحلات التي ستأتي والأسفار التي قد تطول هذه المرة. فقد لاحظت هزالها عندما اشترتها، ولكنها فكـــرت في ذلك، وحسبت له حسابه.

وبعد أيام من العزلة، والعمل المتواصل، أنهت زهو البال صنع البردعة والمحامل. ولعلها تكون قد وضعت في الجيوب السرية أشياء لا تريد أن يعلمها، ولا يراها أحد. ثم جلست تتأمل كل ذلك بعين الرضا، وقد بدا عليها شيء من الانشراح، والبهجة، والاطمئنان.

وفي ذلك اليوم أيضا، خرجت إلى الضاحية، وتأملت أتانها وهي ترعى هناك، وربتت على ظهرها، ومشطت شعر رقبتها، ونفضت عنها الغبار، وما علق بها من قش وحسكة. وقد أبهجها أن رأتها ممتلئة البطن، منهمكة في الأكل، وقد بدأت تتخلص من هزالها، وبدا عليها النشاط والبهاء.

وكذلك أنهت عملها، وفرغت لنفسها، تعطيها شيئا من الراحة، وتعدها لبدء رحلاتها وأسفارها القادمة. ولكنها في الوقت نفسه، كانت تجمع كل ما يلزم من أغراضها الطبّية والتجارية، وترتبها، واضعة كل شيء في مكانه الذي يلائمه، ويسهل استعماله. وقد بدت في هذه المرة، أكثر تنظيما، وأكثر جدية. مما طبع صورتها وسلوكها بطابع التاجر المتجول حقا. وهو ما تريد أن تكونه بعد أن هيأت لذلك كل الشروط اللازمة.

أما ابنتها أم السعد، فإنها لم تكن على ما يرام. وقد زاد قلقها أكثر بعدما اشترت أمها أتانا، وراحت تتهيأ للرحلات المقبلة بكل جد. لأن ذلك يعني أن زهو البال ستصبح كثيرة الأسفار والترحال،

وهو ما سيجلب لها المتاعب، ويعرضها للأخطار. وقد يوجه لها العسكر تهما أخرى. وقد صارحت أمها بتلك الأحاسيس التي تنتابها، وناقشتها عدة مرات، محاولة إقناعها بالكف عن الرحيل، والبقاء إلى جانبها. إلا أنّ عزيمة أمها كانت أقوى وأشد. وأن رغبتها في الأسفار والرحيل كانت لاتحد. فما كان من أم السعد، إلا أن سكتت، وكفت عن مناقشة أمها في ذلك، مادامت قد قررت قرارها الذي لا يمكن الرجوع عنه. فبكت في سرها، وكبتت مشاعرها، وحاولت إخفاء قلقها. إلا أن أمها كانت أدرى بذلك. ولأنها كانت تقدر مشاعرها نحوها، فإنها كانت تعمل باستمرار على تهدئتها وتطمينها.

وفي صباح يوم من الأيام، عندما كانت الشمس قد بدأت تشرق، وتنير قمم الجبال المتناثرة هناك، والتي كثيرا ما كانت مواضع تأمل لزهو البال، رأى كل من كان خارج المترل، امرأة تمتطي دابة نشطة، وتحمل أغراضا أخرى، وهي تسير خببا، متجهة نحو الجنوب. ولم يشكوا أبدا في أنها زهو البال. ذلك أن خبر شرائها أتانا، قد بلغ الجميع. وأن الجميع أيضا، ظلوا ينتظرون ذلك اليوم الذي يرونها فيه، وهي تمتطي أتانها، وتبدأ أول رحلة من رحلاتها، التي أصبحت علامة من علاماتها الخاصة.

لقد كان الصباح مشرقا وجميلا. وكان الجو منعشا ولطيفا. وكانت الرحلة تبدو مشوقة ومغرية، في نظر زهو البال، التي راحت أتانها تخب، وهي تحثها على السير بحركات خفيفة ومنتظمة، برجليها. وقد أبهجها أن أتانها تستجيب لذلك فلا تضطرها لاستعمال عصاها، كما هو الحال مع حمار زوج ابنتها، حين استعانت به في رحلتها الأولى إلى البر الخالي.

أما في ضاحية الدشرة، فقد كان الإمام يجلس تحت شجرة زيتــون هرمة يقولون أنها من عهد الرومــان. ويقولون أيضا، إن جبــاة الضرائب في العهد التركي كانوا يقيلــون في ظلها، كلما قصدوا المنطقة في كل صيف.

كان يجلس متكئا إلى جذعها، وكأنه من مخلفات الترك، وقد مد رجليه على حصيرة من الحلفاء، وراح يلاحق زهو البال بنظراته الحادة، والأطفال يتحلقون أمامه وقد أمسكوا بألواحهم، وراحوا يتمايلون بأجسادهم الطرية، في حركات غير منتظمة وأصواتهم ترتفع، وأوداجهم تنتفخ، خوفا من لسعات العصا الزيتونية النائمة إلى جانب رجليه الممدودتين في وسط الحلقة.

## -15-

عندما كانت زهو البال في أول رحلة لها، تبحث عن ابنها الفقيد بهي الطلعة، اكتشفت شيئا مهما جدا في هذه الحيـــاة. هو لذة الحـــركة، ولذة التجوال، ولذة البحث عن شيء مـــا. أي شيء كان.

فقد رأت في ذلك تجددا للحياة، واستمرارا لها. ولاحظت أن فسحة الأمل تتسع أكثر عندما يضع الإنسان شيئا ما نصب عينيه. ويعمل على تحقيقه، أو يحاول الوصول إليه. ولا يهم في ذلك متى، أو كيف يتم الوصول. إنما المهم في ذلك، أن تكون هناك حركة، ويكون هناك هدف، يعمل الإنسان لأجل تحقيقه بحب وقنـــاعة.

وحينها، اتضح لها أيضا، أن المشي والحركة يفيدان الإنسان في كثير من الأشياء، ويمنحانه النشاط والقوة. فكان قرارها برفض السكـــون. ونذرت نفســـها منذ ذلك للحركة، والعمـــل الدؤوب. ثم راحت تبحث عن المبررات، وتبحث عن أشياء أخرى تكون هدفا لها في حياتها، ودافعا يدفعها كي لا تتوقف. لأن في التوقف انتهاء، وفي السكون نهاية.

ثم جاءت فكرتها النورانية، التي تفاجأت بها هي نفسها، عندما توصلت إليها. كما فاجأت بها غيرها بعد ذلك. وهي أن تعمل بائعة متجولة. وقد بدأت تطبق فكرتها تلك، بأشياء بسيطة، راحت تعرضها على زبونات متفرقات هنا وهناك. تبذل المزيد من الجهد للوصول إليهن راجلة. حاملة مبيعاتها على ظهرها، ملفوفة في منديلها الأسود، ومعلقة في طرف عصاها، التي ورثتها عن أبيها الحافظ للأسرار، بعد وفاته، وهي تشق الطرق، وتقطع المسافات، دون كلل، أو ملل.

لقد اختارت في بداية الأمر، بيع بضائع محددة. هي عبارة عن بعض الأغراض النسائية، التي تجد الإقبال. ثم أضافت إليها بعض ما يرغب فيه الأطفال من حلوى، وعلك. وتلبية لطلبات الشبان فقد صارت تبيع أيضا، بعض التبغ، كالسجائر من النوع الرخيص، والشمة التي كانت تصنعها بنفسها، مثلما تعلمت عن المرحوم زوجها الذي كان يضرب به المثل في صناعة الشمة، وفي تذوقها.

ولأنها كانت كثيرة الترحال والتجوال، فإنها كثيرا ما كانت تلتقي بالمجاهدين صدفة، أو عمدا. وكانت تحدثهم ويحدثونها، وتسألهم عن أحوالهم، ويسألونها عن أحوالها، وعن أحوال الآخرين فمنهم من كان يسأل عن أصدقائه ومعارفه ومنهم من كان يسأل عن أهله وأقربائه. وكما كانت تحمل إلى بعضهم تحية أو سلاما، من قريب أو صديق، فإنها كانت تحمل منهم أيضا. وقد يكلفونها، زيادة على ذلك، بقضاء بعض الحاجات، أو تبليغ بعض الرسائل. شفوية كانت أو كتابية. وهو ما كان يبهجها، ويبعث فيها الاعتزاز.

إلا أنها كانت تتعرض أيضا، للتفتيش والاستجواب، والمضايقات من قبل عساكر الاستعمار، عندما تصادفهم. غير أنها كانت تتغلب عليهم دائما ببراعتها في كتم الأسرار، وإخفاء ما يكون معها من محظورات، وذلك باعتمادها أولا على الشجاعة التي هي من صفاتها. وثانيا على الجيوب السرية التي صنعتها بحكمة وبراعة، في بردعة دابتها.

وفي المرة الأخيرة، أوقفوها، وهي عائدة من إحدى رحلاتها، وكان التعب قد نال منها. ففتشوها، واستجوبوها. ثم قاموا بإتلاف أغراضها، وكسروا صندوقها الطيني، المزخرف. وقادوها إلى السجن، وبعد أن وجهوا إليها تهمة التعامل مع المتمردين، والعصاة، والخارجين عن القانون. بتموينهم، ومعالجتهم وتزويدهم بالأخبار والمعلومات.

وكذلك كان لها أن تدخل السجن، لأول مرة في حياتها، وتكتشف فيه عالما آخر، كانت تسمع عنه الكثير، ولا تعرف عنه أي شيء. إنها تجربة أخرى تضاف إلى تجاربها التي ما فتئت تزداد، وتتنوع في هذه الحياة. ففي النهار كانت تقاد للاستنطاق والتعذيب. ثم تعاد إلى زنزانتها الضيقة، لتستنطق هي بدورها الجدران هناك، وتحاور ما رسم عليها بأظافر السجناء، أو بدمائهم. أما في الليل فإنها تتكور في إحدى الزوايا، تطلب قليلا من النوم الذي هجرها، ولم يعد يأتيها إلا في القليل النادر، لترى فيه من الأحلام المرعبة، ما لم تره في حياتها أبدا.

وهناك في سجنها، منع عنها كل شيء، وحرمت من كل شيء، حتى من تدخين السبسي. فكان أن عاودها السعال بنوباته الحادة. فقد أخذوه منها، وسألوها عن وظيفته. وحين أجابتهم، وكانت صادقة في جوابها، لم يقتنعوا بذلك، وضحكوا بأعلى أصواتهم، ثم احتفظ به أحدهم في جيبه للذكرى، كما قال. وعرض عليها بسخرية أن تدخن سيجارة، أخرجها من جيبه وقدمها لها، فرفضتها، واستسلمت لنوبة من السعال الحاد.

مكثت زهو البال في تلك الزنزانة، واحدا وثلاثين يوما كاملة، تعاني الأرق والتعب والرطوبة. أما التعذيب، فقد أوقفوه عنها بعد الأسبوع الأول. ثم أصبحت لا تزار، ولا تكلم، إلا حين قضاء الحاجة، أو أثناء رميهم لها بعض الأكل. أما بقية الأوقات، فقد كانت تقضيها جالسة في زاوية ما، أو واقفة تتأمل الجدران، وما خط عليها بالدم، أو حفر بالأظافر. فكانت تجد في ذلك تسلية، وتقوية لمعنوياتها التي بدأت تتأثر يوما بعد يوم. ولذلك كانت تطيل التأمل فيها، وتعيد قراءة ما كتب. وفي كل مرة، كانت تكتشف جديدا من الأحاسيس والمشاعر التي تنطق بها تلك الجدران الصامتة أبدا. والتي تركها سجناء لا تعرف عنهم شيئا، سوى أنهم مروا من هناك ذات يوم، وتركوا ذلك البوح الذي تنطق به جدران رطبة، لا يصلها الضوء إلا من كوة صغيرة، تطل على ممر ضيق، يقف بعده جدار عال وسميك، وحراس مدججون.

فهناك من السجناء من حفر أيام الأسبوع، ثم حفر أمام كل يوم منها خطوطا تدل على عدد أيامه التي قضاها هناك. لقد نجح إذا في معرفة الأيام، ومسك بها. إنه محظوظ إذا. وهناك من اكتفى بحفر الخطوط وحدها. فلعل الأيام قد فرت منه، أو لعله أمي. وآخر خط بدمه الأحمر، عبارة بارزة ومثيرة؛ تحيا الجزائر.

أما حيث الكوة المطلة على الخارج، فقد كتبت أشياء أخرى فإلى اليمين رسالة سجين يبدو أنه أعدم بطريقة ما. يقول فيها: "إذا كان حظلك مثل حظي، أن تساق إلى نهايتك من هنا، فلا تغمض عينيك، ولا تكتم أنفاسك وأنت تموت. واملأ عينيك ورئتيك بحب الجزائر. إنه زادك الأخير، الذي يجب ألا تتخلى عنه".

تتحرك ببطء داخل الزنزانة، تتأمل ما تبوح به جدرانها. ثم تقف مطولا أمام الكوة، لتقرأ تلك الكلمات، التي لابد أن كل مسجون مر من هناك، يكون قد قرأها، وأعاد قراءتها. وأن بعضهم يكون قد ملأ عينيه ورئتيه بحب الجزائر. فهل تستطيع هي أن تفعل ذلك، لو فاجأتها تلك اللحظة الرهيبة؟ أم أنها لا تجرؤ، وتكتفي بأن تغمض عينيها، وتكبت أنفاسها؟

لم تجد جوابا للسؤال. أو لم تشأ أن تجيب. فكرت قليلا، ثم قررت أن لا جواب إلا في أوانه. فأجمل الأشياء هي التي تأتينا فجأة، وتفارقنا فجأة. فلماذا نحاول أن نتهيأ لها، ونفسد بذلك نكهتها؟

نظرت إلى الجدار وكأنها تستنطقه، أو تحاوره.

يجب أن أتركها هنا، سأنقشها على هذا الجدار، لتكون علامة، وشهادة أخرى. وخيطا آخر من خيوط الحب بيننا وبين الآتين من بعدنا.

امتدت يدها إلى ممسكتها الفضية في صدرها، فلم تجدها. تذكرت أنهم أخذوها منها. لقد جردوها من كل شيء. حتى من أشيائها الصغيرة؛ قرطيها، وخاتمها، وإبزيمها.

راحت تبحث عن شيء صلب، يمكنها من أن تنقش على الجدار شيئا ما. إنها قصيدة الشعر التي عثرت عليها في جيب ابنها بهي الطلعة. إنها شهادتها التي يجب أن تتركها على هذا السجن، قبل أن يحتويها المجهول.

كان اليوم الواحد والثلاثون قد اكتمل، وها هي في زنزانتها جالسة، وقد أسندت ظهرها إلى الجدار، ومدت بصرها عبر الكوة الصغيرة، تلاحق خيط الضوء الذي يزورها من هناك، في الليل، كما في النهار. لقد رحلت من خلاله بعيدا. وإنها هنا الآن بجسدها فقط. أما العقل، والقلب، والروح، فإنهم جميعا هناك.

إنها تعانق الآن قمم الجبال والروابي الشامخة هناك، والتي لا تفارقها أبدا. إنها تقطع المسافات التي تعودت قطعها، وترى الوجوه التي تعودت رؤيتها، وتسمع الأصوات التي تعودت سماعها.

إنها تبحث عن أشيائها الجميلة التي تركتها هناك. عن علمها الصغير، الذي وجدته في جيب ابنها بهي الطلعة، عندما عثرت على جثته في البر الخالي. وكمشة التراب المضمخة بدمه. وعن القصيدة التي وجدتها في جيبه الداخلي.

لقد خبأت كل ذلك في الجيوب السرية، التي صنعتها وهي تخيط بردعة أتانها. فلقد فتشها العساكر عندما أوقفوها، ووجدوا كل شيء، وأتلفوا كل ما وجدوه. ولكنهم لم ينتبهوا إلى الجيوب السرية، فنجت أشياؤها الجميلة. ولكنها لا تدري مصيرها الآن، ولا مصير الأتان التي تركتها هناك، ترقب أشياءها المبعثرة في كل مكان.

وفجأة صر باب الزنزانة بجانبها. وانقطع الشريط، وعادت من رحلتها إلى هناك. لقد جاءوا لأخذها. فإلى أين؟

وعندما كانت تغادر الزنزانة، كان بصرها مركزا على ما كتب إلى يمين الكوة الصغيرة. وبعد لحظات قليلة، وجدت نفسها خارج الزنزانة، ثم خارج السجن.

وقبل أن تخطو خطواتها الأولى، راحت تملأ عينيها، وتملأ رئتيها، كما قال ذلك السجين الذي لا تعرف عنه شيئا. ولكنها كانت تذهب إلى مصير آخر.

## -16-

كان خروج زهو البال من السجن، في ضحى يوم لطيف وجميل. وقد أحست هي بذلك، بمجرد وجودها خارج بوابة السجن الذي احتواها مدة واحد وثلاثين يوما كاملة. حينها، أحست بالبهجة تغمرها.

ومع ذلك، فإنها راحت تقطع شوارع القرية ببطء. إنها متعبة جدا. فلقد عذبت، وأرهقت أعصابها بالاستجوابات المتكررة، وبصراخ المساجين، وهم يقاومون شتى أنواع التعذيب. التي كان الجلادون يتفننون في إخراجها، ويتلذذون في تنفيذها على المساجين، بواسطة الهراوات، والعصي، والكهرباء، والماء، والكلاب، والزجاجات. وغيرها من الوسائل التي لا يمكن لآدمي أن يفكر فيها إلا إذا خرج عن آدميته، وأصبح شيئا آخر.

واحد وثلاثون يوما كاملة، أمضتها هناك. ولما لم يستطيعوا افتكاك أي شيء منها، أخلوا سبيلها، و لم يقولوا لها شيئا. و لم يطلبوا منها إلا توقيعا بالبصم على محضر الاعترافات الذي سجلوا فيه ما أرادوا، وقالوا ما شاءوا.

ولما تخلصت من القرية، ومن شوارعها الضيقة، وعيون أهلها النافذة. راحت تبطئ في سيرها أكثر، وتتنفس ملء رئتيها، وتملأ بصرها بمناظر اشتاقت إليها، وحرمت رؤيتها. وحينها بدأت أشعة الشمس اللطيفة تنفذ إلى جسدها الذي أتعبته رطوبة السجن، فبدأ ينتعش، وبدأت هي تشعر بالراحة تسري فيه من رأسها إلى أخمص قدميها. فهل تصدق أنها كانت هناك فعلا؟ أم تصدق أنها الآن هنا حقا؟

لقد جربت السجن، وصارت تعرفه، وتعرف معناه. فهو ليس للرجال فقط، كما يقولون. إنه للنساء أيضا. فهل يغير الناس رأيهم في ذلك؟ أم أنهم سيبحثون عن تبرير يحفظ لهم صدق ما يقولون، وصدق ما يدعون؟

لقد وجدت راحتها عندما خرجت من القرية، وابتعدت عنها فأصبحت تسير مدة، ثم تجلس أخرى، لكي تستريح. إنها منهكة جدا تشعر بأن رجليها مشدودتان، ولا تطاوعانها في السير. إن واحد وثلاثين يوما في الزنزانة، أقعدتها عن الحركة. وهي الآن تجد صعوبة كبيرة في تطويعهما، وترويضهما على السير. بحيث تشعر بتشكلهما، وعدم قدرتهما على الاستجابة كعادتهما.

إنها واحد وثلاثون يوما، بنهرها ولياليها الطويلة. كانت فيها مثل الكلب المربوط، لا تتحرك إلا في حيز صغير، ولا ترى من هذا العالم الفسيح الجميل، إلا أربعة جدران رطبة خرساء، تحمل من الرسوم والكتابات، ما لا يبعث في النفس إلا الأسى والألم. ولا تسمع إلا وقع الأحذية الخشنة، التي تدك هذه الأرض فتعذبها. وتأوهات المعذبين المرعبة، التي تتحدى جدران السجن، متصاعدة نحو الفضاء الواسع.

وبعد جهد ومشقة، أطلت زهو البال على الدشرة. فكان أول من أسرع نحوها الأطفال الصغار، ثم ابنتها أم السعد، ومن ورائها بعض النسوة. ومنهن من كانت تبكي، ومنهن من كانت تزغرد. وفي الضاحية سكتت أصوات الأطفال عن قراءة القرآن ووقف إمام الدشرة تحت شجرة الزيتون الهرمة، ليستجلي الأمر. ثم بدا أنه أدرك الأمر. فقد عاد ليتصدر حلقة صبيانه، ويحثهم على القراءة، وهو يسند ظهره من جديد، إلى جذع الشجرة. وربما يكون قد راح يفكر أيضا، في مواجهاته لزهو البال. وربما تكون بعض الأحاسيس الأخرى قد تحركت في داخله.

أما هي فقد كانت متعبة جدا، إذ أن شيخوختها لم تستطع الصمود أمام قساوة السجن، والتعذيب. ولذلك، فإنها لم تكن تفكر آنذاك، إلا في ضرورة الخلود إلى الراحة، كي تسترد بعض عافيتها وتسكت نوبات السعال الحاد الذي قهرها، وزاد في محنتها. فاغتسلت أولا، ثم خلت إلى نفسها بعض الوقت، وأخرجت نسخة ثانية للسبسي كانت تحتفظ بها في مكان ما، وراحت تدخن بشراهة لتقهر علتها، وتسكت سعالها الذي ظل يفاجئها، منذ دخولها السجن. ثم عادت بعد ذلك إلى مستقبليها، فجلست إليهم متكئة بظهرها إلى الجدار، مستسمحة الحاضرين في مد رجليها، ليأخذا راحتهما التي حرما منها، مدة واحد وثلاثين يوما كاملة.

اتكأت، وتنهدت بعمق. ثم بدأت تسأل عن أحوال الدشرة، وعن أحوال أهلها، وعن أتانها. وقد اطمأنت بعد أن أخبروها بعودة أتانها مع غروب اليوم الذي أوقفت فيه. غير أنها عادت

ببردعتها فقط دون غيرها من الأشياء الأخرى. ورغم الخوف والأخطار، فقد تطوع بعضهم للبحث عنها بعد عودة أتاها مباشرة. ولكنهم عادوا يائسين عند منتصف الليل، بعد أن أخبرهم شهود عيان، بأنهم رأوا مجموعة من العساكر تقودها في اتجـــاه القرية، بعد أن عبثوا بأشيائها وأتلفوا أغلبها.

استمعت زهو البال بإمعان إلى الجزء الذي لا تعرفه من قصة إيقافها، وسوقها إلى السجن، حتى عودة الأتـــان إلى الدشـــرة. ثم بعدها راحت تحدث الحاضرين وتجيبهم عن أسئلتهم، التي تركز معظمها على السجن وما يجري فيه، وعن استجوابهـــا من قبل العسكر وتعذيبهم لها، وكيف كـــانت تنام؟ وماذا كانت تأكل؟ ومن كان معها في السجن؟ إلى أن أكملت رواية أخبارها من البداية إلى النهاية. وأعـــادت بعضه عدة مـــرات، نزولا عند رغبة بعض الســـامعين، أو الســـامعات. حينها تفرق الحضور، وتركوها تنام.

وفي تلك الليلة، نامت زهو البال مثلما ينام الأطفال. فما أن تفرق الحضور حتى قامت لتتفقد أتاها، وبردعتها، متحسسة جيوبها السرية، وما حوته من أشياء خاصة. وبعد أن اطمأنت على كل ذلك ذهبت إلى فراشها وتمددت. وبمجرد شعورها بالدفء، راحت في نوم عميق ومسترسل، و لم تحلم بشيء.

وفي الصباح لم تنهض باكرا كعادتها. فمازالت آثار السجن ترهقها، وتشل نشاطها الذي عرفت به، وتحد من حركاتها الدائبة. ومع ذلك، فها هي تلزم نفسها زيارة امرأة من نساء الدشرة،

سمعت بأنها طريحة الفراش منذ أكثر من أسبوعين. ولما تأملتها وفحصتها مستفسرة عن علتها، عادت إلى المترل وأحضرت بعض أدويتها، ثم حضرتها وناولتها منها. وكذلك راحت تفعل معها عدة أيام إلى أن شفيت، بعد إشرافها على الهلاك.

وكم كان فرح الزوج بشفاء زوجته. فدعا زهو البال إلى عشاء خاص، وقدم لها عصاها التي ورثتها عن أبيها الحافظ للأسرار فقد وجدها صدفة، وهو يمر بالمكان الذي أوقفها فيه العسكر، وعبث بأشيائها. كما قدم لها أيضا صندوقا خشبيا جميلا وطريفا، صنعه بنفسه. قال إنه سيساعدها على حفظ أعشابها الطبية. وهو تعويض أيضا، عن صندوقها الذي كسره العسكر. وقد قبلته بغبطة وانشراح. وكذلك بدأت تعوض بعض أشيائها التي أتلفت، وتسترجع بعض الذي ضاع.

## -17-

من عادة زهو البال، عندما تنهض في الصباح، أنها تتوضأ، وتصلي أولا، ثم تتناول فطورها الخاص، وهو عبارة عن فنجان صغير من زيت الزيتون، تشربه على الخوى. بعدها، تجلس في فراشها الدافئ، وبخاصة في أيام البرد، وتخرج سبحتها ذات الثلاث والثلاثين حبة، والتي أحضرها أبوها من البقاع المقدسة عندما ذهب لأداء فريضة الحج راجلا. ثم تبدأ في إدارتها بواسطة إبهامها، حبة بعد حبة. مرددة في سرها شيئا من الذكر، أو الدعاء.

ذلك هو ما تفعله زهو البال، في كل صبح من أصباحها العادية، إلى أن تشرق الشمس، وتنشر أشعتها في أرجاء المنطقة، ويصل ضوئها أغلب الأمكنة نازلا من قمم الجبال والروابي، إلى السفوح. مداعبة بدفئها كل الكائنات. حينها تشرع في تفقد أغراضها وربما في إعادة ترتيبها، حتى يسهل استعمالها أثناء الحاجة إليها وبخاصة عندما تكون مقبلة على سفرة من أسفارها المعتادة، إذ تبدأ في الاستعداد لذلك، أياما قبل موعد السفر. فإذا حان الموعد، كانت قد وضعت كل شيء في مكانه. فتحزم أشياءها على ظهر أتانها، وتنطلق في اتجاه ما.

وإذا كان اليوم ليس يوم سفر، فإنه من أيام الاستعداد له. فهــاهي تتفقد أغراضها بجانبها، وتعيد ترتيبــها في مواضعــها. ثم تفتح صندوقها الطي، لتعيد ترتيب ما فيه، وتتفقد ما ينقصه من ضرورات تستلزمها المهنة. بعدها تجلس إلى جانب البردعة، وتتفقدها أيضا، وتتفقد جيوبها السرية، وما حوته من أشياء خاصة جدا، وعزيزة جدا. لتتأكد من وجودها هناك.

إنها تخرج صورة صغيرة، كانت ملفوفة في ورق، ثم في قطعة من قمــاش، مخبأة في واحد من جيــوبها السرية، التي صنعتــها في بردعة أتانها. تضعها في كف يدها، ثم تتأملها في رقة وحزن. وتعلو وجهها ابتســامة حب شديد. تلك كانت صورة ابنــها الشهيد بهي الطلعة. إنها الصورة الوحيدة، من بين صوره التي نجت من الحريق في تلك الليلة المشهودة التي مازالت تتذكرها، وتتذكر فيها كيف أخرجوها من المترل عنوة؟ بعد منتصف الليل، ثم أشعلوا النار وذهبوا. وتركوها هناك، تتأمل الحريق وتحترق، وهي تتمزق ألما وحسرة، ولا تستطيع فعل أي شيء.

لقد أعادتها صورة ابنها بهي الطلعة، إلى فترة من فترات ماضيها بما فيه من أحلام جميلة، وآلام مريرة. فسرحت فيهما لحظــات، ثم عادت لترجع الصورة الصغيرة إلى مكانها الأمين، في واحد من جيوبها السرية، حيث لفتها في ورق، ثم في قماش، ثم دستها هناك، حيث تطمئن عليها. ثم قامت بعد ذلك وخرجت، لتتفقد أتانها في مربطها المعتاد. إلا أنها لم تجدها هناك. فراحت تنظر إلى مختلف الجهات، وإلى حيث يمكن أن تكون منشغلة بقضم الحشائش

والأشواك مثلما تعودت. ولكنها لم تعثر لها على أثر. إنها المرة الأولى التي تختفي فيها، في مثل هذا الوقت. فقد تعودت أن تفك رباطها بنفسها كل صباح، وتصرفها إلى مرعاها. وقد تعقلها هناك، حتى تحد من حركاتها، فلا تبتعد عن الديار، ولا تضر المزارع، والحدائق. فأين يمكنها أن تكون قد ذهبت، أو قد ذهبوا بها؟

– لقد عملوها إذا، في هذه الليلة. هذا ما كنت أتوقعه منذ مدة. لكن المهم ألا يكونوا قد ابتعدوا بها كثيرا. هؤلاء الترقون. إنهم لا يرون أنثى إلا وتهيج غرائزهم. لم تنج منهم لا أتان، ولا بغلة، ولا فرس. ولكنهم معذورون، بعضهم تقدمت به السن ولم يتزوج. في زماننا كانوا يزوجوننا، ونحن لا نعرف معنى الزواج. أما الآن، فقد تغير كل شيء. إنها سنه الحياة، لاشيء فيها يثبت على حال. ثم إن هذه الحرب البشعة، والظروف الصعبة، التي تعيشها البلاد، ويعانيها العباد لا تمنح هؤلاء الشبان فرصة التفكير في الزواج. إنهم يفارقوننا كل يوم، ولا يتركون لنا من حياتهم، سوى ذكريات جميلة، تسكن قلوبنا وتنعشها، ولكنها تعذبها باستمرار.

فكرت في كل ذلك، وهي واقفة تنظر إلى مختلف الجهات، علها تعثر على أثر لأتانها. ولما يئست، رجعت إلى المترل تبحث عن عصاها.

هذه العصا التي لم تضرب أحدا منذ آلت إلي، ولا أعرف أن أبي ضرب بها أحدا، غير حيواناته. يجب أن تأخذ اليوم حقها من هؤلاء الذين أجدهم يعبثون بدابتي.

عادت من المترل بعصاها، وقد ظهرت عليها الهمة لفعل شيء ما. وراحت تشق طريقها في اتجاه الجنوب، حيث خمنت أن تجد أتانها هناك. وكذلك كان الحال، فقد لمحتها هناك، ولكن في وضع مفاجئ، وعلى غير ما كانت تتوقعه.

إنها هناك فعلا، وراء الربوة، بين أشجار الصفصاف العاتية. وقد فتحت ظبيتها لواحد من الأحمرة، وهو يسقط عليها بكلكله، ويدق في مؤخرتها غرمولا شبيها بغصن محترق. وهي تتلوى تحته، ولكنها لا تمتنع. بل تبدو عليها دلائل النشوة والانفعال، اللذين أنسياها ما تعانيه تحته من عناء.

هكذا إذا، هذا هو الذي لم أفكر فيه حتى الآن. لقد بدأ الزبائن نشاطهم وبدت همتها في استقبالهم. ولا أعتقد أن هذا المحظوظ هو أولهم، ولن يكون آخرهم أيضا. فماذا ينتظرك يا زهو البال؟ وماذا تنتظرين من هذه العاشقة الولهانة بعد الآن؟ ستعانين معها ومع زبائنها، الذين ستكشف لك عنهم واحدا بعد الآخر.

دقت الأرض بعصاها دقة الحازم في أمر ما، ثم اتكأت عليها بيديها الاثنتين، وتوقفت. ثم نظرت حولها. لا أحد هناك. كل شيء على ما يرام، وفي تمام السرية والأمان، أيتها العاشقة المتيمة. ثم إنك تحسنين اختيار المكان والزمان أيضا.

ومع ذلك، فقد انتظرت هناك، حتى انتهيا من عمليتهما. ثم تقدمت إليهما ونهرت الحمار بعيدا، وساقت أتانها أمامها، وعادت بها إلى مربطها، عقابا لها على فعلتها تلك.

سيكون لك جحش، أو جحشة بعد حين. أتمناه ذكرا. سأنتظره، مثلما تنتظرينه أنت أيضا. وعندما يكبر، سأستغني عنك. سأبيعك بأرخص الأثمان، أو أتركك للحمير والشبان، يعبثون بك كما يشاءون. لن أبحث عنك، ولن أفكر فيك أبدا.

## -18-

عندما يكون الجو صحوا، يحلو السفر والترحال للشيخة زهو البال. فتعمد إلى إطالة رحلتها، وتستغرق في سفرها. فتمر بذلك بعدد كبير من الأماكن. وتوصل بضاعتها إلى أكبر عدد من زبوناتها وزبائنها، الذين تعودوا عليها، وأصبحوا يعرفون أيضا، متى يمكنها أن تأتيهم، ومتى لا يمكن ذلك. لأن حركاتها مرتبطة بحركة الطبيعة، وبتقلبات الأحوال الجوية. فمتى كان الجو ألطف، كانت الزيارة ممكنة. فهي تمر بالساكنين أفرادا، أو جماعات. لا تترك أحدا ممن تعتبرهم زبائنها. وقد يكون مرورها لمجرد التفقد، والاطلاع على الأحوال، أو تلبية لدعوة. وهي تحسب حسابها لقضاء الليالي، كيف؟ ومتى؟ وأين؟ حتى لا تثقل على مستقبليها. فهي مرة هنا، ومرة هناك. تعرف متى تقصد، ومتى لا تقصد. ومتى تنزل، ومتى ترحل.

وكذلك تكمل رحلتها، وتنهي دورتها، التي تضبط حساباتها واتجاهها قبل كل شيء، عند انطلاقها. وقد تحدث بعض التغييرات، كلما كان هناك طارئ يخصها، أو يخص غيرها. وبخاصة عندما تصادفها حالات مرضية تستدعي العلاج. وكل حالة لها ظروفها الخاصة. ولها ما يترتب عنها. ولذلك، فإن دوراتها لا تسير على نهج واحد، ولا تأخذ شكلا واحدا، ولا مدة محددة. فهي تسير بشكل دائري أو حلزوني، أو منكسر. وقد تسير مع الطرق والممرات،

مثلما تقطع الحقول والشعاب. وترتقي القمم والمرتفعات. وقد تسير يوما، أو نصف يوم، أو بعض الوقت. فكل شيء عندها محسوب في بدايته، إلا أنه معرض للطوارئ في أية لحظة تأتي.

وفي النهاية تكون قد عادت، بعد أن حلت وارتحلت. وباعت ما باعت من معروضاتها. وسجلت طلبات لأشياء أخرى في رحلاتها المقبلة. وتكون أيضا قد جمعت العديد من الحشائش الطبية، التي تستعملها في وصفاتها العلاجية، كالشيح، والزعتر، والزعفران وتاسلغة، والريحان، والفيجل، والخرشف، وغيرها من الحشائش والنباتات التي ثبتت منافعها، وتأكدت أهميتها ومفعولها، في شفاء العديد من الأمراض، التي مازالت تكافحها منذ حلولها بالمنطقة.

إن أغلب رحلاتها وأسفارها التي تقوم بها، تتم في فصلي الربيع والخريف، أما في فصل الصيف، فإن ما تجمعه في رحلاتها، من حبوب، في شكلا هبات من بعض المحسنين، يفرض عليها اختصار الرحلة، في أغلب الأوقات، والعودة إلى المترل، تخفيفا عن أتانها.

فإذا جاء الشتاء، فإنها لا تبرمج إلا عددا قليلا من الرحلات بعضها يتم وبعضها يقطع، وبعضها الآخر يلغى، أو يؤجـــل. وذلك حسبما تمليه الظروف الطبيعية، والتقلبات الجوية.

وها هي الآن في طريق عودتها. فقد أدت مهمتها، أو شيئا منها، وهي تشعر بشيء من التعب، وشيء من الجوع. فالوقت يقارب الظهيرة، وكما هو وقت للأكل، فإنه وقت للاستراحة أيضا. ولأن السماء صافية، والشمس تكاد تتوسطها، فقد بدا الجو حارا، يبعث في الجسد ارتخاء وليونة، ويجعله يميل إلى البحث عن ظل يتمدد فيه، ويغوص في لذة الاسترخاء.

وكما كانت زهو البال تشعر بذلك، فإنها كانت تحس بأن دابتها التي هي في الأسابيع الأولى من حملـــها، بعد فعلتها تلك، قد تعبت أيضا. ولابد من أن تأخذ راحتها، حتى تستطيع أن تكمل بها بقية المسافة المقدرة لذلك اليوم، كي تصل بها المترل. ولن يكون ذلك، إلا بعد العصر، إذ هي الآن في أعالي "كاف المايدة"، وهي آخر محطة لها قبل الوصول. إنه جبل من جبال تلك المنطقة، التي تتكئ إلى بعضها، في حلقة مستمرة، وكأنها تبوح لبعضها بما تخفيه من أسرار هذه الحياة المتلاحقة، والمتجددة أبدا.

لقد سماه الناس منذ القدم، بهذا الاسم، لأنه يحمل في قمته صخرة كبيرة مسطحة، وبشكل يكاد يكون دائريا، بحيث تبدو للرائي من بعيد، كـــأنها مائدة فعلا. وقد تفنن النـــاس في نسج الحكـــايات حولها فمنهم من يقول إنها تجمع الشـــياطين ليلا، ليتحاوروا فيما فعلوه في يومهم، وما يجب أن يفعلوه في غدهم ببني آدم، من وساوس وغوايات، تدفعهم لارتكاب المزيد من المعاصي والآثام. ومنهم من يقـــول إنها تجمع أرواح الأولـــياء والصالحـــين، الذين مروا من هناك، وهم كثيرون، تعم بركاتهم المنطقة كلـــها منذ القدم. يلتقون ليتشاوروا في أمور النـــاس وأوضاعهم العـــامة والخاصة، وأعمالهم الصالحة والطـــالحة، ومن يجب منهم أن يكافأ، ومن يجب أن يعـــاقب.

هناك في أعالي ذلك الجبل، أوقفت زهو البال أتانها بالقرب من شجرة زيتون، ونزلت. سترتاح هي ودابتها هناك بعض الوقت.

وبينما أسرعت الأتان إلى الحشائش، والأشواك، وأوراق الأشجار، تقضمها أخرجت زهو البال من أحد محاملها، قطعة كسرة ملفوفة في قطعة من القماش وبعض اللبن الذي وضعته في إناء نباتي هو عبارة عن حبة يقطين مجففة. ثم جلست تحت شجرة الزيتون الواقفة هناك، شبيهة بتلك التي يتظلل تحتها إمام الدشرة وصبيته، وربما تكون أيضا، في عمرها أو أكثر.

أسندت ظهرها إلى جذع الشجرة، ومدت بصرها تتأمل أي شيء كان. إنها الطبيعة جميلة بخضرتها، ولطافة جوها. وبعيدا تبدو حقول الزرع ذهبية اللون بسنابلها، جذابة، توحي بالخير والعطاء.

جذبت نفسا طويلا، ثم اعتدلت، وراحت تفك عقد قطعة القماش، التي تلف فيها كسرتها. بسطتها على الأرض وسوتها. ثم نزعت سدادة اليقطين، وبدأت تتناول غذاءها.

أكلت على مهلها، وتلذذت بطعامها، وأجادت مضغه بما بقي لها من أسنان، هي عبارة عن قواطع وبعض الأنياب.

كانت تقطع جزءا صغيرا من كسرتها فتمعسه أولا بأصابعها، ثم تبدأ مضغه بعد ذلك. وكلما أطالت، كلما كان في ذلك فرصة لأتانها، كي تأخذ نصيبا من الراحة، وتقضم المزيد مما تجده من الحشائش، والأشواك وأوراق الأشجار الدانية.

ثم عادت بعد ذلك، لتسند ظهرها إلى جذع الشجرة، وترسل بصرها المتعب، ليداعب الكون وما فيه، دون تركيز أو تحديد. ولكنها أحست بشيء ما في صدرها يقلقها. لذلك فتحت صندوقها الطبي، وأخرجت السبسي، وراحت تدخن بشراهة،

لكي تقمع ذلك الشيء الذي يتمرد عليها في صدرها. وما أن شعرت بشيء من الراحة، حتى كاد النوم يسرقها. فراحت تقاومه أيضا بالحركة. إذ قامت وصعدت أعلى الصخرة الكبيرة، المسماة بالمائدة، ثم تيممت وصلت صلاة الظهر لأول مرة هناك. إنها تريد بذلك أن تطرد الشياطين من هناك، إذا كانت تلك الصخرة هي مجمعهم. أما إذا كانت ملتقى لأرواح الصالحين والأولياء، فإنها ستتبرك بهم، وبأرواحهم الطاهرة. وتزيد في بركاتها، وبركات أوليائها.

ولما أنهت صلاتها، وجمعت أغراضها. امتطت دابتها، وراحت تكمـــل طريقها. ولكنها قد تنام وهي راكــبة. ومهما يكـــن من الأمر، فإن ذلك أفضل لها من النوم على الأرض، وفي مكان خـــال من الناس. وقد يطول نومها، ويداهمـــها الليل هنـــاك، وهي بعيدة عن الديار.

لقد تعودت النوم بتلك الطريقة، منذ مدة، بعد أن قضت أوقاتا طويلة تتمرن على ذلك، وتمرن عليه دابتها. حتى أصبح من الهين عليها أن تنام كذلك. وقد وجدت في النوم على تلك الطريقة، راحـــة ولذة، وكسبا للـــوقت. أما الناس فإنهم عندما لاحظوا عليها ذلك، أشاعوا عنها أنها قد أصيبت بمرض السنة.

ولكن، قبل أن تبدأ نومها، يجب أن تعرج، ولو قليلا، على بعض الأمكـــنة التي تعودت أن تجمع منها بعض الحشائش، والأعشاب الطبية، التي تكثر هناك وتتنوع. إنها أمكنة غنية بتلك الأعشاب، اكتشفتها بالصدفة، ومع مرور الزمـــن، وهي تمر من هناك. وقد أصبحت الآن تتزود منها باستمرار.

ولما كان النهار يلملم أشياءه الأخيرة، والشمس تميل إلى مغيبها، كانت هي تدخل الدشرة من ضاحيتها الشمالية، ممتطية أتانها وقد استفاقت من نومها، ووصلت إلى سمعها أصوات العـــائدين من حقولهم ومراعيهم. فقد انتهى يوم من أيامهم، وانتهت رحلة من رحلات زهو البال.

وأمام باب المنـــزل، كانت أم السعد واقفة، تستقبل أمها، وكأنما أحست بقدومها، فخرجت تنتظرها.

## -19-

يجب أن أهجم. هذا هو الحل الوحيد والأوحد. ألم يقل أهل الخبرة والدراية، إن الهجوم هو أحسن طريقة للدفاع؟ وأنا أدافع عن نفسي، وعن كرامتي، ومكانتي. لذلك وجب علي الهجوم. وإذا أنا لم أفعل، فإنها فاعلة ذلك باستمرار.

إنها تزحف كالجراد على ما بقي لدي، وستأتي عليه عاجلا أو آجلا، إذا لم أحم نفسي. إنها تزحف ببطء، نعم. ولكنها تفعل ذلك بدون توقف. وأنا مازلت أراوح مكاني. بل مازلت أفقد كل يوم موقعا من مواقعي. ومعنى ذلك، أنني أتراجع بينما هي تتقدم. ومعنى ذلك أيضا، أنني سأجد نفسي في يوم ما، لا شيء. بعد أن أفقد كل شيء، وتأتي هي على كل شيء.

يجب أن أهجم هذه المرة، ويجب أن أعرف كيف يكون ذلك ومتى يكون. سأرسم لذلك خطة جهنمية، أخلط بها كل أوراق هذه المرأة، وأبطل كل ادعاءاتها بين الناس. وهذا هو أهم شيء.

إنها تريد أن تأخذ مني كل شيء، بعد أن كنت أملك كل شيء. فهي لم تقنع لا بالقليل، ولا بالكثير. إنها تريد مني كل شيء. وهذا ما لا يجب السكوت عنه أبدا.

فكر الإمام كذلك، وقاله لنفسه ذلك، وأعاد قوله عدة مرات وهو يجلس على حصيرة مغبرة، في صدر الجامع، مسندا ظهره إلى الجدار، مادا إحدى رجليه، مثنيا الأخرى. مثبتا بصره على الباب المشرع، يرقب خروج آخر الصبية من هناك.

فقد انتهت حصة الدرس، المسائية، وخرج الأطفال بسرعة محدثين ضجة، انتهت في الأخير بهدوء تام. بعد أن لفظهم الباب خارجا. وبقي وحده جالسا، يفكر في الأمر الذي صار شغله الشاغل منذ حلت زهو البال بالدشرة.

لقد كـــان الجو في هذه الأمسية، يميـــل الى البرودة. ولذلك لم يخرج اليوم بالأطفـــال إلى الضاحية الشرقية، ويجمعهم حوله تحت شجرة الزيتون كعادته. وفضل البقاء داخل الجامع، رغم أن ذلك يحرمه من ملاحظة كل حركة بل كل طـــارئ في الدشرة، ورغـــم أنه يكتم أيضا أصوات الأطفـــال، التي يفضلها عـــالية، تبلغ أقصى مداها.

امتدت يده اليسرى إلى جيب داخلي، أخرج منه "قرنا مزخرفا". نظر إليه متأملا، ثم نزع سدادته المغلقة بجلد أحمر، وأخذ منه قليلا من الشمة برأس أصبعيه، السبابة والإبهام. ثم أغلقه، وأعاده إلى الجيب بكل عناية، ثم راح يستنشق الشمة، فيســـد إحـــدى منخريـــه، ويجذب بالأخرى نفسا طويلا.

شمة تزيل الغمة.

لعله فكر في ذلك. وإن هو لم يفكر، فالظاهر أنه كان يبدو عليه شيء من الانشراح. لقد انتشى بفعل الشمة. إن مفعولها قويا جدا فزوجته الكريمة تجيد تحضيرها.

ومع ذلك، فإن الناس لا يعرفون أنني أشم، وأنني صاحب حشيشة. وأن خطأ بسيطا في ذلك، قد يكلفني فقدان هذا الأنف النافر كالحصان. ثم إن العرف يقتضي ألا أشم. فأنا إمام الدشرة، ومعلم صبيتها. فلا يجب أن أقرب التبغ، فهي من بول الشيطان حسب اعتقادهم. وقد حرمها الدين في نظرهم ثم حرمها "النظام" أيضا. ولو علموا بتمردي على إرادة "النظام"، وعدم استجابتي لتعليماته، لقالوا عني الكثير. وحينها، سأدفع الثمن غاليا. ولن يعود بإمكاني الظهور أمام الناس بأنف مبتور. ولن أستطيع بعد ذلك أن أخطب في النـــاس بفصاحتي المتميزة. وسيجعلني الأطفال أضحـــوكة، بل سخـــرية.

امتدت يده لتتحسس أنفه النافر، وأسرع برمي ما بقي بين أصبعيه من شمة، بعد أن جذب منها نفسين اثنين، سريعين وقويين.

إن زهو البال قد توقفت عن صنع الشمة، وعن بيعها لزبائنها، امتثالا لإرادة النظام. ولكنها مازالت تدخن السبسي بحجة المعالجة. ولم يقولوا عنها شيئا، لا بحجة الضرورات تبيح المحظورات، ولكن بحجة أنها لا تدخن تبغا. وأن ما تدخنه ليس منتوجا اقتصاديا، ولا علاقة له بمحاربة الاستعمار، وعملائه. ولكن مع ذلك، يجب أن يعد فعلها من التدخين. وهي في هذه الحالة، تتشبه بالرجال. وقد لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال.

ولكن، لماذا لم أنتبه إلى هذه القضية من قبل؟ إنها مسألة جديرة بالاهتمام فعلا. وسأحدث بها زوبعة لن تهدأ أبدا. سأضيفها كنقطة أساس في الخطبة التي بدأت أفكر فيها.

آه. إنني اليوم أتجلى فعلا والفكرة تأتيني ملهمة. فيها الحجة، وفيها البرهان، وفيها الدليل القاطع. ستكون هذه الخطبة عصماء، وستكون قارعة. سأزلزل بها مواقع هذه المرأة، وسأسحب البساط من تحت رجليها، وسأرجح الكفة لصالحي.

لقد بدأت الأمور الآن تتضح، وبدأت الرؤية تنجلي أكثر. وهاأنذا، قد بدأت أمسك برأس الخيط الذي سيمكنني.

الدرس لا يفيد في مثل هذه القضية، سيعرضني لأسئلة، وقد تكون محرجة. إنما يجب أن يكون ذلك في خطبة جمعة. فمن لغا فلا جمعة له. حينها فقط يمكنني أن أقول كل شيء، ولا يستطيع أحد أن يقول أي شيء. سأضرب هذه المرة الضربة القاضية، وسأهجم هجمة الأسود الكواسر.

ثم نهض لينصرف، وهو يشعر بنشوة الانتصار قبل الأوان فقد تأكد لديه أنه قد أمسك برأس الخيط الذي سيمكنه.

لقد أزفت ساعة الحسم يا زهو البال، وستعرفين حينها قيمة الرجال وقوتهم.

إنني اليوم أتجلى فعلا. إنني في حالة تجل قصوى. ويبدو أنني قد بدأت أسير على الطريق الصحيح.

هكذا سأعيد ترتيب الأمور في هذه الدشرة، بعدما تبعثرت وعبث بها العابثون. سأعيد كل شيء إلى ما كان عليه، أو أفضل مما كان. وسترين ذلك بنفسك، وسترضخين في نهاية الأمر، أحببت أم كرهت.

ثم راح يتحين الفرص، ويعد العدة، ويهيئ نفسه لليوم المشهود، منتظرا غيابها، لأن ذلك سيكون أريح له، وأنفع.

ولما كانت الشيخة غائبة، للقيام بإحدى رحلاتها المعتادة، تبيع بعض معروضاتها، وتجمع الأعشاب الطبية، التي تستعملها في معالجة مرضاها، ثم تمر من هناك على قبر ابنها المرحوم بهي الطلعة، لتترحم عليه، وتدعو له ولكل الشهداء، ومن بينهم ابنها الصغير، الذي مات محترقا. فقد قالوا إن الذين يموتون حرقا، أو غرقا، معدودون أيضا من الشهداء.

وحلت الجمعة، ولم تعد الشيخة من رحلتها بعد. وإنها الفرصة التي قد لا تعوض أبدا. يومها، توضأ الإمام، وتطيب، ولبس كل أبيض لديه، ثم توجه إلى الجامع، وكله عزم وحماس. وألقى خطبته العصماء، التي فكر فيها أياما عديدة، وسهر لها ليالي طويلة، وبذل في تحضيرها وتدبيجها، جهدا كبيرا. يكتب ويعيد، وينقح ويزيد. إلى أن اكتملت، وبدا راضيا عنها، مطمئنا إلى نتائجها قبـــل الأوان.

لقد كانت خطبة نارية حقا. شن فيها حربا شعواء، على السحر والسحرة، والمحرفين لكلام الله، والخارجين عن الطاعة بدون استثناء. واتهم الشيخة بالسحر، مكتفيا بالتلميح، دون التصريح. كما اتهمها بتحريف سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين تدعي تعليم البنات. وبممارسة الفتوى، التي قال إنها لا تجوز للنساء أبدا. إذ لا يوجد من أجازها من أهل السنة جميعا، رغم اختلافهم.

ورأى الناس، لأول مرة، إمامهم على غير عادته. فهو متحمس إلى حد الانفعال، ومنفعل إلى حد الغضب. فقد كان يرفع صـــوته حتى يسمعه البعيد قبل القريب. وكأنه يريد إيصـــال كلامـــه،

إلى من هن في الديار، وليس لمن هم معه في الجامع. إنـــه يحـــذر الرجال من النساء وكيدهن، ومن الساحرات وسحرهن، ومن عقوق الزوجات لأزواجهن، وسوء تربيتهن لأبنائهن وبناقمن. ومن الوسوسة في آذان البنات الشابات، وتفسير الأحلام لهن بغير معرفة، أو دراية. ثم وصل بكلامه إلى أنه من الأفضل للمرأة ألا تتعلم. وقرأ الحديث: "العلم فريضة على كل مسلم..."، لأن ذلك مضر بها وبمجتمعهـــا. لأنه يعطيها فرصة الاتصال بالرجال، عن طريق المكاتبات الغراميـــة، التي تقود في النهاية إلى الرذيلة. وقرأ قـــول الشـــاعر: "نظـــرة، فابتسام، فكلام، فموعد، فلقاء". وأعاد قراءته عدة مرات بتأن، متوقفا عند كل لفظ، شارحا تدرج كل مرحلة بعد الأخرى، وكيف أن الأمور متعلقة ببعضها. إذ تكفي بدايتها، لتحل بعد ذلك نهايتها، التي تكون فيها الطامة الكبرى.

ثم راح يشير إلى ما حل بالدشرة وبأهلها، وهو الوحيد الذي يعلم ذلك لما وصله من شكاو، ومناوشات، وخصومات، بذل لإصلاحها كثيرا من الجهد. وقال إن ذلك شيء طارئ على الدشرة، وعلى أهلها. ولذا يجب أن تعاد الأمور إلى نصابها. ويمارس الرجال حقوقهم وسلطتهم. والنساء واجباقمن فقط.

وسمع الناس خطبة إمامهم، ومنهم من اشمأزت نفسه، ومنهم من تأفف، ومنهم من تحمس حتى أحمرت أذناه.

وفي الأخير خرجوا، وكل واحد منهم قد امتلأت نفسه بشيء ما. أما هو، فقد كان كمن يخرج منتصرا من إحدى المعارك الضارية.

## -20-

منذ أن دخلت زهو البال السجن وعذبت، أصبحت لا تستطيع التحمل كثيرا فقد أنهكتها السنون، وزادت عليها أيام السجن والتعذيب. فها هي الآن تبدوا متعبة جدا، بعد عودتها من رحلتها الأخيرة بالأمس فقط. حيث باعت ما باعت من معروضاتها، وجمعت كمية معتبرة من الأعشاب الطبية. وفي الأخير عرجت، وهي في طريق عودتها، على ضريح ابنها الشهيد، بحي الطلعة، فتفقدته، ونزعت عنه ما علق بتربته من أشواك، وأوراق أشجار، حملتها الرياح. وسقت ما زرعت حوله من نباتات، وأصبحت تشكل حوله مستطيلا أخضر، تتناثر فيه بعض الأزهار بألوان مختلفة.

ثم وقفت إلى جانبه، تترحم عليه وعلى كل الشهداء، وتدعو لهم. ولما أتمت دعاءها جلست بالقرب منه، وراحت تحدثه عن الدنيا وكيف أصبحت. وعن قساوة الحياة، ومعاناة الناس. فالموت صار يأخذ بالجمع، ومن كل مكان. فلا يمر يوم، إلا وتأتينا فيه أخبار عن موت هنا، وآخر هناك. وسجون الأعداء تضيف إليها كل يوم عددا جديدا، يحشر بين جدرانها، ليلاقي ما يلاقيه من تعذيب وأعداد الأيتام تزداد كل يوم، مثلما يزداد عدد الأرامل والثكالى، والمشردين من ديارهم. ومع ذلك فنحن صابرون. الكل يبكي ويتألم،

والكل يؤدي واجبه، وينتظر ساعة الفرج. إلا من خان العهد، وخان الوطن، وأغراه الطمع، فإنه قد سلك طريقا غير هذا الطريق.

أما أنا فإنني كما تراني. لم أعد أملك، بعدك، شيئا. ولكنني أصبحت أرى نفسي أملك كل شيء في هذه الحياة. وإنني أودي واجبي، ولن أتخلى عنه أبدا. فثق في أمك يا ولدي، كما كنت تثق في نفسك. إن ما أستطيع أن أفعله لا أتخلف عنه أبدا. أنقل الرسائل، والمعلومات، وما أقدر عليه من طلبات. وأعالج المرضى والمعطوبين، وأعاني ما يعانيه غيري من الناس، وربما أكثر منهم في بعض الأوقات. فقد سجنت. نعم سجنت. أمك زهو البال، ابنة الحافظ للأسرار أدخلت السجن، وعذبت في آخر عمرها. ولكنني فخورة بذلك يا ولدي، كما أنا فخورة بك. فابتهج أنت أيضا في قبرك بذلك. وافرح لأمك التي سجنت، وعذبت من أجل هذا الوطن، الذي فديته بروحك. وإنني مازلت أحتفظ بما وجدته في جيبك يوم عثرت على جثتك في البر الخالي. علمك الصغير، وقصيدتك الجميلة. لقد حفظت كلماتها، ونقشتها كاملة على جدار السجن الذي أقمت فيه واحدا وثلاثين يوما كاملة.

وبذلك البوح، تكون قد أتمت رحلتها، وختمت طقوسها. ولم يبق لها بعد ذلك، إلا أن تمتطي دابتها وتعود. وحينها، ستسلم أمرها لأتانها وتستغرق هي في نومها، الذي أصبح ميزة أخرى من مميزاتها.

* * *

إنها تجلس تحت الشجرة، قرب المترل، تتفيأ ظلها، وتمد رجليها إلى أشعة الشمس تدفئهما. ومن هناك تتأمل الكون الممتد أمامها، وتتأمل نفسها من خلاله. فتخترق الآفاق، وتقطع الجبال، وتجتاز الشعاب، والأحراج، وتلتقي بالناس هنا وهناك. إنها تمارس كل شيء، وترى كل شيء من هناك، وهي مسندة ظهرها إلى جذع الشجرة.

ثم تجيئها ابنتها أم السعد، وتجلس إلى جانبها لحظة، وتتأمل ما تتأمله أمها. وتمر اللحظات، والصمت سيد المكان. ومع ذلك، فإن لأم السعد شيئا ما تريد أن تقوله، أو تتخلص منه.

وبعد نظرات خفيفة إلى أمها، تجرأت، وراحت تروى لها قصة الإمام وخطبته الأخيرة، والتي هي الآن حديث كل الناس.

– لقد قال عنك الإمام كلاما كثيرا، في خطبة الجمعة. هو لم يذكرك باسمك، هذا صحيح. ولكنه كان يقصدك في كل ما قال. وكل الناس قد فهموا ذلك. فقد كان متحمسا جدا في خطبته الأخيرة، عندما كنت غائبة. وكنا نسمعه حتى من المنازل...

استمعت زهو البال إلى ابنتها بكل هدوء، وهي تحدثها عن خطبة الإمام الأخيرة، ولم تقل شيئا. كما أنه لم يكن يبدو عليها ما يدل على التأثر، أو الانفعال. وكان الأمر لم يكن يعنيها.

ولكنها كانت تفكر في شيء ما. وقد فهمت أم السعد من أمها ذلك. فزهو البال لا يمكنها أبدا، أن تترك أمرا مثل هذا، يمر بهذه الكيفية، وبتلك السهولة فهي ليست من عادتها أن تتكلم كثيرا، كما ليس من عادتها أن تتسرع في الحكم. ولكنها لم تتعود المواقف السلبية في حياتها أيضا. وقد علمتها التجارب كيف تواجه كل كبيرة، وكيف تتحاشى كل صغيرة.

ولما أنهى الإمام صلاة العصر في تلك الأمسية، وقبل أن ينفض مأموموه القلة، وأغلبهم من شيوخ الدشرة القاعدين في المنازل ومن أطفالها، فاجأته الشيخة في مجلسه بالمصلى. وقد كان الهدوء باديا عليها، وهي تملأ الباب بقامتها المستقيمة، التي لم تؤثر فيها عوامل الزمن بعد، وبيدها عصاها التي لا تفارقها إلا في النادر من الأوقات. حيت الجميع، ثم التفتت إلى الإمام وركزت عليه بصرها. وبدون انفعال، راحت تخاطبه:

– لي عندك طلب، سيدي الإمام. وأرجو ألا تردني خائبة وهو أن تمتحني في حفظ القرآن، وامتحنك فيه. وتسألني وأسألك. وتمتحن أنت من علمتهن من البنات، وأمتحن أنا من علمت أنت من البنين إلا أنني اشترط عليك حضور كل أهل الدشرة، وحضور من عرفوا بحفظهم للقرآن، في هذه الناحية.

نظر الحاضرون إلى بعضهم، ولم يقولوا شيئا. واحمر وجه الإمام، وأراد أن يقول شيئا، فراح يتلعثم في الكلام، وفقد السيطرة على اللغة، وضاعت منه مفرداتها التي تعود التلاعب بها إلى حد التقعر. ثم استطاع أخيرا، وبصعوبة، أن يكون جملة فهمها الحضور.

– ولم كل هذا، أيتها المرأة؟

– حدد لذلك، الموعد الذي يساعدك. وادع من تثق فيهم، وعندما تكون مستعدا لذلك، أخبرني.

وتفاجأ الحضور، وبهتوا. وعادوا ينظرون من جديد إلى بعضهم، وهم يتمتمون، ويوشوشون، ويتساءلون فيما بينهم.

أما هي، فقد انسحبت، دون أن تضيف شيئا، وتركت مجلسهم الموقر. وبقي باب الجامع مفتوحا، مثلما هي مفتوحة أفواههم وقد فهم بعضهم ما تعنيه زهو البال، و لم يفهم البعض الآخر. ولكنهم انصرفوا جميعا، دون أن يسمعوا أي تعليق، أو أية كلمة من إمامهم.

و لم يمض على حادثة المسجد إلا وقت قليل، حتى كانت الدشرة كلها قد سمعت، من كبارها إلى صغارها، ومن نسائها إلى رجالها. وراحوا جميعا يتحدثون بإسهاب وإضافات. ومنهم من سماها حادثة، ومنهم من سماها اقتحاما. كما أن بعضهم اعتبر ذلك جرأة وشجاعة، بينما اعتبرها آخرون تجاوزا للحدود، بل وقاحة. وفي تلك الليلة، طالت سهرات أهل الدشرة، وكثرت أحاديثهم داخل المنازل وخارجها. ومنهم من ذهب لزيارة غيره.

أما زهو البال، فقد بقيت منذ تلك الحادثة، تنتظر الموعد الذي سيحدده الإمام، لمناظرتما أمام الملأ. وطال انتظارها.

فقد مرت الأيام، ثم الأسابيع، ولكنه لم يفعل. وأكثر من ذلك، أنه صار يتجنب كل كلام أو حديث يتعلق بها. ولعله يكون قد طلب من زوجته أن تفعل ذلك أيضا. حيث أصبحت تتجنب المجالس النسائية، إلا ما كان منها ضروريا. وإذا حضرتها، فإنها تلتزم الصمت، إلا في الأمور العامة جدا.

وبقي الناس ينتظرون ساعة التحدي الكبيرة، والصدام العنيف، الذي سيقع في يوما ما، بين الإمام والشيخة. وراح بعضهم يتكهن مسبقا بنتيجة ذلك. وكان الرأي الغالب، أن تنهزم زهو البال. رغم أنهم كانوا لايرضون لها ذلك. ولكنها امرأة، وأمام رجل من نوع خاص.

إلا أن الجميع لم يكونوا يعرفون، أنه في إحدى الليالي، بعد تلك الحادثة بين الشيخة والإمام، حدث أن مر بالدشرة شخص غريب دق باب الإمام قبل منتصف الليل بقليل. وعندما خرج إليه، ابتعد به قليلا عن الديار، ثم حدثه طويلا، وأستفسره في الأمر. وأخيرا أنذره وحذره من شيئين اثنين: أولهما: أن النظام قد علم بتهجمه على الشيخة بالباطل. وثانيهما: أنه يعرف أيضا، أنه مازال يتعاطى الشمة. وإذا كانت عقوبة الثانية هي قطع الأنف، فإن عقوبة الأولى ستكون أكبر. لأن الشيخة مظلومة أولا، ولأنها أم شهيد ثانيا.

## -21-

ظلت زهو البال تنتظر رد الإمام على طلبها الجريء، الذي أثار غضبه، وحير الناس من حوله. معتقدة أنه لن يفوت فرصة مثل هذه، لم يكن يفكر فيها أبدا.

أما هو، فقد قلب الأمر على عدة أوجه، ولم يخطر بباله في يوم من الأيام، شيء مثل هذا. وهاهي الصدفة تفعل فعلها، وتفتح له بابا ظل يبحث عنه منذ مدة.

إنها الفرصة التي لا يمكن الاستغناء عنها، ولا يمكنها أن تتحقق مرة أخرى.

هكذا فكر في بادئ الأمر. لأنه رأى في ذلك، الحل الوحيد والجذري لمشكلته. فيحقق الانتصار، ويرد لنفسه الاعتبار، الذي أحس أنه يضيع منه يوما بعد يوم. وبذلك يوقف هذه المرأة التي أصبح أمرها يؤرقه. فهي تستقطب الناس كل يوم، وتستميل قلوبهم الواحد بعد الآخر.

إنه لا يستطيع، بالفعل، أن ينكر جرأتها وذكاءها، وقدرتها على حل كثير من المعضلات، وسعة اطلاعها، ودرايتها بأسرار النباتات ومنافعها الطبية. ولكنها تبقى في نظره امرأة، أولا وقبل كل شيء. والرجال قوامون على النساء. فلتقف حيث يجب عليها أن تقف ولا تتجاوز الحدود.

إلا أن الأمور سارت على غير ذلك. فما إن مرت الأيام الأولى، والتي بدا فيها الإمام متحمسا، يهيئ لنفسه مخرجا، ويعيد التفكير، قبل أن يتخذ القرار الأخير، حتى بدأ يظهر عليه الهدوء المريب، والوجوم، والاضطراب.

أما زهو البال، فإنها بدأت تشك في استجابة الإمام، وقبول طلبها المتحدي، والقاضي بتحديد يوم للمناظرة بينهما.

ولما لم يأتها رده، لا بالسلب، ولا بالإيجاب، بدأت تفكر في رحلاتها وأسفارها. حيث رأت أنه لا بد لها من أن تعاود رحلاتها المعتادة، فلعل غيابها عن الدشرة، يمنح الإمام فرصة لاتخاذ القرار. فقد يستطيع، أثناء غيابها، أن يقول شيئا كما تعود. أو يقرر قراره، ويحدد من الأمر موقفا. ولذلك راحت تهيئ نفسها لرحلة أخرى، تعيد لها حيويتها ونشاطها. وتبعدها عن الملل والضجر اللذين بدآ يتسللان إليها، ويتسربان إلى نفسها من كثرة القعود في المترل، بين نوم وجلوس تحت الشجرة، ومجالسة النسوة، أو بعض الفتيات اللائي يقبلن على مجلسها، قصد الاستفادة من تجربتها في الحياة، ومن علمها الواسع، الذي ما فتئ يفصح عن نفسه يوما بعد يوم.

وقد تعمدت زهو البال أن تتباطأ في تحضير الرحلة، علها تظفر برد الإمام، الذي تنتظره بشغف كبير. فلعله يحدد يوما للمناظرة التي طلبتها منه، وهو كل ما تتمناه. خاصة وأنها أصبحت مقتنعة بأن ذلك اليوم، سيكون فاصلا آخر في حياتها، وفاصلا، أيضا في حياة الإمام.

وإذا كانت هي قد تعودت الفصل في الأمور، فإنه مازال لا يعرف ذلك حتى الآن. إلا أن الأيام كانت تمر، وكأنها تتسارع. ومقتضيات الرحلة قد أنجزت عن آخرها، ولم يبق لها إلا أن ترحل، أو تؤجل.

ثم جاء قرارها الأخير بالرحيل. ذلك أنها منحته الوقت أكثر مما يجب، وانتظرت حتى أصبحت تمل الانتظار. وباتت شبه مقتنعة بأن الإمام قد اقتنع بعجزه عن المواجهة، فراح يتعمد المماطلة. أولعله يريد بذلك تحقيق هدف، أو تدبير مكيدة.

فلما كان يوم الرحلة، نهضت مع أول إشراقة للشمس، فبردعت دابتها، وحملتها لوازمها. ثم امتطتها، ونخزتها لتبدأ رحلتها وقد اختارت هذه المرة، أن تمر أمام باب الكتاب، حيث كان الأطفال يتحلقون حول معلمهم إمام الدشرة، وقد ارتفعت أصواتهم بغير انتظام منهم من كان يحفظ آياته، ومنهم من كان يستظهر حفظه، ومنهم من يستملي لكتابة لوحه من جديد.

إنها تريد بمرورها من هناك، أن تذكره، بطريقة غير مباشرة، بطلبها الذي لم يرد عليه بعد.

أما هو، فلعله قد فهم من ذلك شيئا آخر. إذ راحت الوساوس تهاجمه، وتتهاطل عليه من كل الجهات، متزاحمة في رأسه الصغير، الذي يلفه بشاش ناصع البياض.

ماذا تريد مني هذه المرأة، مع هذا الصباح؟ هل هو تحد آخر؟ أم هي نشوة الانتصار؟ أهي تذكرني بطلبها؟ أم هي تعلم ما قاله لي ذلك الرجل الغريب، الذي جاءني في منتصف تلك الليلة؟

لقد تهاطلت عليه الاستفهامات، وتراكمت، وتزاحمت. ولم يستطع أن يجيب عن أي منها. ولذلك راح يتجاهل مرورها، ويتظاهر بانشغاله التام بالأطفال. ينبه واحدا، ويحث الآخر. إلى أن ابتعدت، ثم اختفت عن الأنظار.

إنها تريد في هذه المرة، أن تصل في رحلتها إلى البر الخالي أيضا. حيث سقط ابنها بهي الطلعة شهيدا ذات يوم. وإنها بذلك تستجيب لشيء داخلي يستفزها، بل يدفعها إلى ذلك دفعا. ولذلك رسمت لرحلتها تلك خطة، بأن تبدأها من حيث يوجد ضريح ابنها. ستتجه إليه أولا، لكي تعطيه حقه من الزيارة. حيث تتفقد قبره، وتبعد عنه ما حملته الرياح إليه من أشواك، أو نباتات أخرى. ثم تترحم عليه، وتدعو له ولبقية الشهداء. وتحدثه عن بعض أشيائها الخاصة، التي لا تبوح بها إلا في ذلك المكان، الذي يضم عزيزا عليها، وجزءا منها ومن حياتها.

ومن هناك، تتجه بعد ذلك إلى البر الخالي، حيث تزور المغارة الخفية التي وجدت فيها جثة ابنها بهي الطلعة. فهي لم تعد إليها منذ ذلك اليوم المشهود، الذي وجدته فيه بداخلها، محتضنا بندقيته، وهو مستلق على ظهره، وعيناه مفتوحتان، ولم يكن قد تغير فيه شيء، عدا الشحوب والاصفرار، من جراء النزيف الذي يبدو أنه لم يتوقف إلا بتوقف حياته.

وبعدها ستكمل رحلتها، التي قد تدوم أياما عدة. تمارس فيه نشاطها التجاري المعهود. فهي لم تأت زبائنها منذ مدة. فلعلهم بحاجة إليها، ينتظرونها كعادتهم، لقضاء بعض حاجاتهم. وقد تجد من ينتظرها لأمور أخرى.

هكذا كانت زهو البال تفكر، وهي تغادر الدشرة، في تلك الصبيحة المشرقة، التي توحي بيوم جميل ولطيف. وهي تتحسس دائما، ثم تختار أيام رحلتها بعناية كبيرة، وبحساب دقيق.

أما ابنتها أم السعد، فقد كانت أثناء المغادرة، واقفة أمام المترل، وكأنها شاردة الفكر، تبحث عن شيء ما. فقد كانت تتساءل بينها وبين نفسها، إلى متى ستستمر هذه الرحلات؟ ومتى يمكن لهذه المرأة أن تهنأ وتهدأ، وتستريح وتريح؟

و لم يمض على خروج زهو البال في رحلتها، سوى يومان حتى تفاجأ أهل الدشرة، وكل سكان دوار العرش، بعودة الأتان وحدها، وهي محملة كما خرجت بها صاحبتها. لقد عادت هذه المرة وحدها، وأعادت كل ما تحمله دون أن يضيع منه شيء. لم يستطع أحد أن يجد لذلك تفسيرا. فراحوا يضعون لذلك الافتراضات والاحتمالات.

ولما لم يستقر لهم رأي، و لم يتفقوا على شيء يساعد على حل اللغز، أشارت عليهم أم السعد بأن يعودوا بالأتان من حيث أتت. فهي أعلم بالطرق والمسالك التي تسلكها بها صاحبتها.

وكذلك فعلوا. فقد وجهوها، وراحوا يتبعونها، لعلها تدلهم على شيء ينبئ بما وقع لصاحبتها، أو تقودهم إلى حيث تركتها.

وكذلك كان الحال. فبعد أن مرت الأتان بهم على دروب لم يألفوها، عرجت بهم على ضريح الشهيد بهي الطلعة، الذي تحتضن رفاته قمة إحدى الروابي المتناثرة هناك. فلما وصلته، توقفت هناك لحظة. وكأنها تخبرهم بتوقف صاحبتها هناك. أو هكذا فهموا. ثم تحركت بهم بعد ذلك، نحو البر الخالي. ورغم خطورة الموقف، فإنهم تشجعوا، وساروا وراءها.

ولما كان وصولهم، تجرأوا، واقتحموا المنطقة. وكان منهم من لم يطأها منذ سنوات. وقد كان إحساسهم رهيبا، وهم يدخلونها، إذ امتزجت فيهم أحاسيس الخوف، والتحدي. ومشاعر أخرى لم يجدوا لها تفسيرا، وهم يسيرون وراء أتان تقودهم نحو المجهول، وفي مكان مجهول.

وكم كانت دهشتهم كبيرة، عندما توقفت بهم أخيرا، أمام تلك المغارة الخفية التي لا يعرفها أحد، و لم يسمعوا عنها من قبل، إلا ما روته زهو البال عنها، عندما وجدت بها ذات يوم، جثة ابنها بهي الطلعة. ثم كانت المفاجأة أكبر، عندما وجدوا الشيخة هناك متكئة، وبيدها سبحتها ذات الثلاث والثلاثين حبة. وإلى جانبها مصحفها المجلد، وعصاها المميزة. وعيناها مفتوحتان وقد بدا عليها الشحوب وعلى شفتيها الجفاف. فاعتقدوا أنها نائمة، أو متكئة. ولكنها كانت قد فارقت الحياة. فأخرجوها من المغارة، وحملوها على ظهر أتانها الوفية وعادوا بها من حيث أتوا.

ولما كانت جنازتها في اليوم التالي، حضر الجميع إلى الجامع، للصلاة عليها ومشوا في جنازتها، وهم يتسابقون للتداول على حمل نعشها، والحزن يسيطر عليهم ويسكنهم. وقد سكبت عيون بعضهم كثيرا من الدموع، وبكى بعضهم بعيون جافة.

وفي مقدمة الجنازة، ظهر الإمام، وقد بدا عليه قلق شديد، وتأثر واضح وقد تولى تأبينها بكلمة لم يسبق له أن أبّن بمثلها أحدا من قبل. وربما لم يفعل ذلك من بعد أيضا. حيث تطرق لذكر خصالها الحميدة، فأفاض. ودعا لها فأطال. وبكى، وأبكى.

## -22-

كان الصباح جميلا، والجو لطيفا، والسماء صافية في أغلب الأوقات. وأصوات تنبعث فجأة من هنا وهناك. منها القريب، ومنها البعيد. حيوانات سارحة في مراعيها، وطيور محلقة في سمائها، ورعاة يلاحقون حيواناتهم، ويتنادون من بعيد. وأطفال يصرخون في كل مكان. إنها الحياة تعلن وجودها، وتستمر في هذه الربوع رغم الحزن. ومع ذلك، فأن هذا اليوم ينقصه شيء مهم. إنه أصوات الأطفال المتناغمة، والتي لم تنبعث اليوم من الجامع كعادتها إن خللا ما، يقع في هذا النظام الذي ألفناه.

حينها، كانت أم السعد، الابنة الوحيدة للشيخة زهو البال، ووريثتها الوحيدة من بعدها، تدخل المقبرة مع بزوغ الشمس. وهي تعتقد أنها أول من يطأ أرض المقبرة في صبيحة ذلك اليوم المميز عن غيره من الأيام، السابق منها، وربما اللاحق أيضا. إنه اليوم السابع منذ وفاة أمها الشيخة زهو البال.

كانت تسير ببطء وحزن، متوغلة بين القبور المتناثرة. ولعلها كانت تطأ بعضها غير متعمدة. فبعضها عفا عليه الزمن، ولم يبق منه ما يميزه، أو يدل عليه. إلا أنها فوجئت بالإمام هناك. لم يرها في بداية الأمر. كان جالسا إلى جانب قبر الشيخة، وهو يرتل آيات من القرآن. وكان صوته حزينا، ومؤثرا جدا، يثير الشجن ويدفع إلى البكاء.

إنه الشـــيء الذي لم تكن أم السعد تتوقعـــه أبدا. صحيح، لقد مشى في جنازة أمها، مثلما مشى كل الناس. بل وكان في مقدمة الماشين. وصلى عليها صلاة الجنازة، وأبنها بكلمة متميزة، بكى فيها وأبكى. أما أن يأتي في مثل هذا اليوم، لزيارة قبرها، ويترحم عليها، ويقرأ عليها القرآن، ولعله يكون قد بكاها أيضا. فإن ذلك أمر ليس بالهين أبدا.

فكرت أم السعد في ذلك كله، وهي واقفة مندهشة. ثم راحت تتمشى بهدوء بين المقابر، وكأنها تتفقدهم واحدا، واحدا. تقف لحظة، تتأمل. أو لعلها تفكر في شيء ما. إنها لا تريد أن تشعره بوجودها، حتى لا تقطع عنه وحدته، ولا تفسد عليه ما هو فيه من تأمل أو توحد.

ولما أحس بوجودها، راح ينسحب ببطء، مطأطئ الرأس، منكسر النفس، يمشي بين القبور هادئا، متأملا، إلى أن ابتعـــد، ثم اختفى، دون أن يلتفت إلى الوراء. ومشت أم السعد بعد ذلك، نحو قبر أمها، الذي بدا مرتفعا عن غيره من القبور الأخرى، بتربته الصفراء، التي لم تجف بعد. وقد انفرد عن غيره، وتوسط مجموعة من شجيرات الشيح.

وما هي إلا لحظات، حتى صار في المقبرة عدد كبير من الناس، أغلبهم من النساء والأطفال، وقليل من الرجال. توافدوا أفرادا وجماعات، ووقفوا جميعا عند قبر الشيخة. ومنهم من دعا لها جهرا، ومنهم من أسر بدعائه، ومنهم من كان يبكي، متعمدا إسقاط دموعه على تراب قبرها.

وفي حين كان البعض يقبل تربة القبر، أو يتمسح بها، راح آخرون يعفرون وجوههم بها، أو يضمونها إلى صدورهم. وامتدت يد امرأة لتلتقط طوبة صغيرة من وسط القبر، ثم صرتها في منديلها، ودستها في صدرها، وهي تقول في همس، ولكنه مسموع:

بركة الشيخة. لن تفارقني إلى يوم الممات.

ولما عادت أم السعد من المقبرة، دخلت مباشرة إلى مترل أمها الشيخة زهو البال، وجمعت كل أغراضها، وراحت تتفقدها الواحدة بعد الأخرى. وما أكثر أغراض الشيخة. وما أكثر أشياءها الخاصة؛ المصحف المجلد، والسبحة ذات الثلاث والثلاثين حبة، والعصا، والسبسي المصنوع من الطين الأحمر، الذي جلبته خصيصا من كاف المايدة، والقلم، والدواة، وصندوق العقاقير والأدوية العشبية، وغيرها من الأشياء الأخرى.

وفي الصندوق الخشبي، وجدت أم السعد ما دلها على الجيوب السرية التي خاطتها الشيخة في بردعة أتانها، التي صنعتها بنفسها في يوم ما، وبقيت سرا من الأسرار التي لا يعلمها أحد حتى ابنتها أم السعد.

وفي تلك الجيوب السرية، وجدت أم السعد أشياء خاصة ومهمة جدا. حيث وجدت صورة لأخيها الشهيد بهي الطلعة، وعلما صغيرا بحجم كف اليد، ومعهما حفنة من التراب المضمخ بالدم، وأوراق مخطوطة بخط مغربي جميل، خطته الشيخة بقلمها الخاص.

وبين كل ذلك، وجدت قصاصة صغيرة، وبخط يد أخيها الشهيد. إنها القصيدة التي عثرت عليها الشيخة ذات يوم في جيب ابنها بهي الطلعة عندما عثرت على جثته في البر الخالي. أما بقية الأوراق والتي كانت بخط الشيخة، فهي عبارة عن مخطوط لسيرتها الذاتية، وبجموعة من الرباعيات الشعرية، ووصاياها لابنتها أم السعد. وقد حددتها في سبع نقاط، هي: الأولى: أنها وريثتها الوحيدة في ما تركت. والثانية: أن تتحاشى أي صدام مع الإمام. والثالثة: ألا تتوانى في مد يد المساعدة لمن يطلب مساعدتها. والرابعة: أن تتفقد باستمرار ضريح أخيها الشهيد بهي الطلعة، وتترحم عليه وعلى كل الشهداء. والخامسة: ألا تنصح بتدخين السبسي، إلا عند الضرورة القصوى. والسادسة: أن تبقي الأسرار أسرارا، إلى أن يحين الحين والسابعة: أن تحفظ هذه الوصايا، وتنشر في الناس سيرتها الذاتية، كما خطتها بيدها، دون زيادة، أو نقصان، أو تعديل.

ومنذ ذلك اليوم، عكفت أم السعد على حفظ الوصايا، ومخطوط السيرة اللذين تركتهما أمها. مع التمتع بين حين وأخر بقراءات من الرباعيات الشعرية، والتأمل في صورة أخيها الشهيد بهي الطلعة، التي ظلت تحتفظ بها ملفوفة في العلم الصغير، الذي وجدته معها.

أما الإمام، فقد بدأ يشكو من وهن شديد، كان قد ألم به فجأة ثم كان مرضه الذي ألزمه الفراش. وقد توافد جميع الناس لزيارته، ومن بينهم أم السعد، التي عرضت عليه أن تعالجه،

وذلك امتثالا لوصية أمها، التي أوصتها بمساعدة من هو في حاجة إلى مساعدتها. إلا أنه أعفاها من ذلك بكل لطف. وكأنه قد أدرك نهـــايته.

ثم كانت وفاته بعد ذلك بأيام قلائل. ومشى الجميع في جنازته، وقد تأسف أهل الدشرة كثيرا لموت إمامهم، مثلما تأسفوا من قبل، لموت الشيخة زهو البال. فقد كان الاثنان يملآن حياتهم، وحياة أهل المنطقة كلها بأشياء كثيرة ومميزة. وبذهابهما، فقد تركا فراغا كبيرا، لا يمكن لأي كان أن يملأه من بعدهما.

## -23-

كان اليوم الأربعون، منذ وفاة الشيخة زهو البال، قد حل. ومعنى ذلك أن تسعة وثلاثين ليلة كاملة، قد مرت على وفاتها، حتى الآن. وكأنها ليلة واحدة قد مرت، وبسرعة. وكأن زهو البال كانت هنا بالأمس فقط. أو كأنها مازلت على قيد الحياة. وما غيابها، إلا سفر ة من أسفارها المعتادة.

إنه الزمن يمر بسرعة، ويطوي أشياءه بسرعة أيضا. ولكنها زهو البال قد فارقت الحياة، ولن تعود مهما انتظرها الناس ومهما كانت أحاسيسهم ومشاعرهم نحوها. وإنها لأسفار أخرى لابد أن تنتهي في يوم ما.

في صبيحة ذلك اليوم، نهضت أم السعد باكرا، وأنهت أشغالها المترلية باكرا أيضا. ثم اتجهت نحو المقبرة، كما تقتضيه العادة. وهناك تفقدت قبر أمها، ونزعت عنه بعض الأعشاب، والأشواك اليابسة، التي تجمعت حوله بفعل الرياح، والتصقت بتربته من كل الجهات، وكأنها تلجـــأ إليه، وتتشبث به خوفا من الضيـــاع. ثم لاحظت وجود شجيرات الشيح الصغيرة التي تحيط بالقبر وكأنها تريد حمايته، أو تشهد على وجوده. إنها أهم شجرة طبية، كانت أمها تستعملها لمعالجة بعض الأمراض. إنه شجر معاند مثلها. وصبور مثلها، لا يريد أن يفارقها، أو هي التي لا تريد أن تفارقه. إنه شجر مر، ولكنه طيب وعنيد.

كذلك فكرت، ولكنها لم تقل شيئا. دارت حول القبر عدة مرات، تسوي تربته، وترشها بقطرات من الماء، وتترحم على أمها وتدعو لها. ثم قفلت راجعة من حيث أتت. وفي طريقها، عرجت على قبر الإمـــام. فوقفت إلى جانبه لحظة، تدعـــو له، ثم انسحبت، وهي تفكر:

– لقد كان عنيدا أيضا، ولكنه كان طيبا.

* * *

وفي مساء ذلك اليوم، تساقطت أمطار خفيفة، أنعشت الجو وبعثت في النفوس أملا. ووضعت أتان زهو البال، جحشا صغيرا، رمادي اللون جميل الشكل، بهي المنظر والصورة. قالت عنه أم السعد، عندما رأته، وهو يعاند، محاولا الوقوف على رجليه:

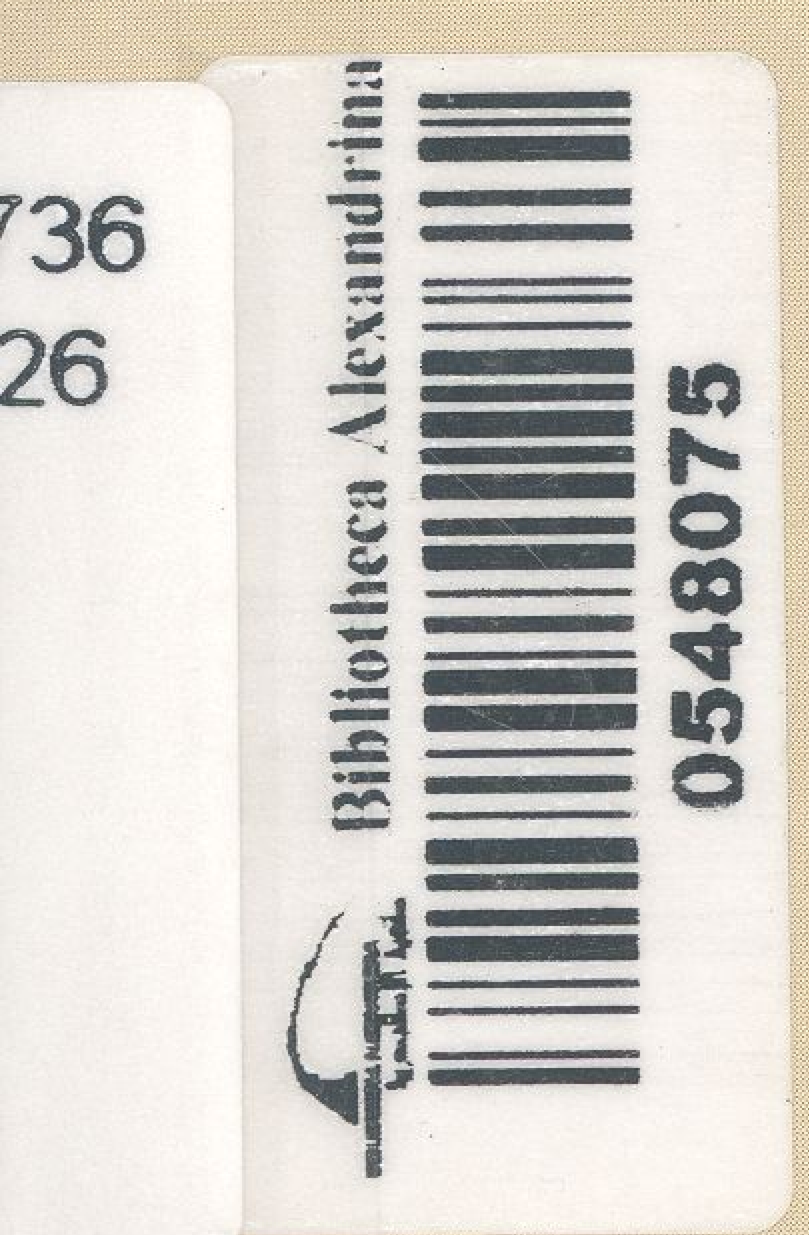
– سيكون شاهدا على نهاية مرحلة، وبداية مرحلة أخرى من الحياة في تاريخ هذه المنطقة كلها.

وفي ذلك المساء أيضا، وجهت أم السعد دعوات لكافة نساء الدشرة، ولما اجتمعن في منزلها، أطعمتهن حسبما جرت العادة، وحسبما تمليه التقاليد، وأكرمتهن. ثم أخبرتهن بأن أمها قد ورثتها كل ما يعرفون عنها، وما لا يعرفون أيضا. ووعدتهن بأن تكون مثلما كانت المرحومة، في كل شيء، لأنها هي التي أوصتها بذلك. وأنها لا تفعل، ولا تطبق، إلا ما جاء في وصاياها لها.

وأخيرا، أنشدت على مسامعهن الرباعية السابعة من رباعيات زهو البال، فتمثلتها بصوت جميل، ومؤثر جدا:

*إذا طـــال الليـــل وتحــــير بــــالي*
*مـــا نقـــول اليـــوم ضاقـــت احوالــــي*
*هي شـــــدة زايلـــة والفرح يـــــــدوم*
*والشمـــس تضـــوي على البـــر الخــــالي*

ثم أسمعتهن فصلا من مخطوط سيرة أمها المرحومة، زهو البال. وقـــالت إنهـــا ستسمعهن مثـــل ذلك، كلما أتيحت الفـــرص، وحلت المناسبات.





ISBN 978-9947-24-299-5
9 789947 242995